

مجلــة البحث العلمي الإسلامي

ترخيص من وزارة الإعلام رقم ٣٦٤/٢٠٠٤

مجلة إسلامية شهرية متخصصة تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية (تصدر كل ثلاثة أشهر مؤقتاً)

السنة الثانية ـ العدد السادس ـ محرم ١٤٢٧هـ ـ شباط ٢٠٠٦م .

الحوالات المصرفية باسم

مجلة البحث العلمي الإسلامي

بنك البركة ـ لبنان ـ طرابلس

حساب رقم: ١٣٩٠٣

المراسلات: لبنان ـ طرابلس ص.ب ٢٠٨

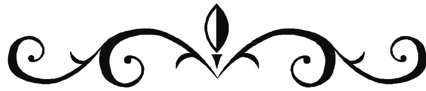
تلفاكس: ٠٠٩٦١٦٤٧١٧٨٨

بريد إلكتروني:

albahs_alalmi@hotmail.com

للاشتراك في المجلة

يرجى إرسال طلب الاشتراك على عنوان المجلة، موضحاً عنوانك البريدي، مع إرسال قيمة الاشتراك على حساب المجلة وإشعارنا بذلك الطلب .



الاشتراك السنوي مضافاً إليه أجور البريد

لبنان ٢٥٠٠٠ل.ل ـ السعودية ٧٥ريالاً ـ الكويت ٧ دنانير ـ الإمارات ٧٥درهماً ـ الدول العربية ٢٠دولاراً أمريكياً ـ الدول الأجنبية ٣٠ دولاراً أمريكياً .



سعر النسخة

لبنان ٢٠٠٠ل.ل ـ السعودية ١٠ريالات ـ الكويت ١دينار ـ الإمارات ١٠دراهم ـ الدول العربية ٣ دولارات أمريكية ـ الدول الأجنبية ٥ دولارات أمريكية .

شروط يجب أن تتوفر في البحث
الذي يراد نشره في المجلة

إتاحة في الفرصة للمشاركة في الكتابة على صفحات المجلة، وللإفادة من أبحاث العلماء والباحثين، فإن إدارة المجلة ترحب بالمشاركة في مجلة البحث العلمي الإسلامي، وفق الشروط التالية:

❋ أن يكون البحث متخصصاً في مسألة من المسائل العلمية، أو قضية من القضايا الإسلامية النازلة .

❋ أن لا تقل عدد صفحات البحث عن ست، ولا تزيد على عشرين من حجم الورق (A٤) .

❋ أن يتسم البحث بالأسلوب العلمي النزيه الهادف، بعيداً عن المسائل السياسية، وأن لا يتعرض فيه لجهات، أو هيئات، أو أشخاص .

❋ يجب أن يكون البحث موثقاً بعزو المصادر، وتخريج الآيات والأحاديث

❋ أن يكون مطبوعاً على الآلة الكاتبة، أو الحاسوب (الكمبيوتر).

❋ أن يكون البحث جديداً غير منشور .

❋ إرفاق نسخة عن سيرة الباحث الذاتية، مع كتابة عنوانه بالتفصيل .

ملاحظات

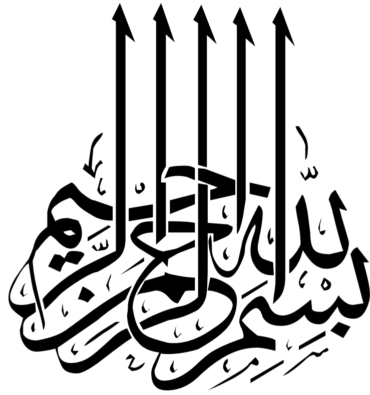
❋ لا يلزم من تسليم البحث وإيصاله إلى إدارة المجلة اعتماده ونشره .

❋ لا يدفع للباحث أي مبلغ مقابل نشر بحثه في المجلة .

❋ لا تلتزم إدارة المجلة بإعادة البحث الذي لم ينشر إلى كاتبه .

❋ إن نشر البحث في مجلة البحث العلمي، لا يعني بالضرورة تبنيه، ويبقى تعبيراً عن رأي كاتبه .

المحتويات


بسم الله الرحمن الرحيم



النبي محمد ﷺ بين هجمة الأعداء وواجب الأبناء

بقلم: هيئة التحرير

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد، فإن الرسول محمداً ﷺ خاتم النبيين، ورسالته خاتم الرسالات، خرج النبي محمد ﷺ هادياً من بين ركام الظلام، وغابات الأصنام، خرج من بين القلوب المتصحرة، والعقول المتحجرة، من بين البنت الموؤدة والأحجار المعبودة .

هذا محمد يا أكوان فابتسمي — وبشري يابسات الرَوْح بالدِّيَمِ
وأذّني في ضمير الكون هاتفةً — تقشّعي يا سجوفَ الظُلْم والظُلَمِ

بطاقة تعريف بالنبي ﷺ:

لقد عرَّف النبي ﷺ بنفسه قائلاً: ((أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي))[1]. وفي رواية: ((وقد سمَّاه الله رؤوفاً رحيماً))[2] وفي رواية أنه وصف نفسه بأنه: ((نبي التوبة ونبي الرحمة))[3].

وقال عن نفسه أيضاً: ((أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واستُرضعت في بني سعد ابن بكر، فبينا

---

[1] رواه مسلم (٨٩/٧) في الفضائل .

[2] [3] نفس المصدر .

أنا في بهمٍ لنا، أتاني رجلان، عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه عَلَقةً سوداء، فألقياها، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرةٍ من أمته، فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائةٍ فوزنتهم، ثم قال: زنه بألفٍ من أمته، فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنهم))[١].

أخلاق النبي محمد ﷺ:

وصف أخلاقَه، أصحابُهُ وآلُ بيته، فقد روى الترمذي في الشمائل المحمدية[٢]، عن الحسين رضي الله عنه أنه قال: سألت أبي عن سيرة النبي ﷺ في جلسائه ؟ فقال: (كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظٍ ولا غليظ، ولا صخَّاب، ولا فحَّاش، ولا عيَّاب، ولا مُشاح . يتغافل عمَّا لا يشتهي، ولا يؤيس منه راجيه، ولا يخيّب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وما لا يعنيه .

وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه .

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته .

وكان يقول لأصحابه: ((إذا رأيتم طالب حاجةٍ فأرفدوه)) . [أي فأعينوه] لا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحدٍ حديثه حتى يجوز [أي يجاوز الحق ويتعداه] فيقطعه بنهي أو قيام)[٣].

وقال جابر رضي الله عنه: (ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا)[٤]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في

---

[١] مسند أحمد (٢٦٢/٥) وابن سعد في الطبقات (١٠٢/١) وانظر البداية والنهاية لابن كثير (٢٧٥/٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤٥) .

[٢] انظر مختصر الشمائل للألباني (٢٤ وما بعدها) .

[٣] انظر الشمائل المحمدية للترمذي (١٦٩ ـ ١٧١) دار الحديث بيروت ١٩٨٨ .

[٤] نفس المصدر .

رمضان حتى ينسلخ، فيأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة))[١].

وصفه خادمه أنس رضي الله عنه فقال: (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أُفٍ قط، وما قال لي لشيءٍ صنعته: لِمَ صنعته، ولا لشيءٍ تركته: لِمَ تركته، وكان من أحسن الناس خُلُقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق النبي ﷺ)[٢].

ووصفته زوجته عائشة رضي الله عنها قالت: ((لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخّاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح))[٣].

وقالت: ((ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة))[٤].

موقف الرسول محمد ﷺ من الأنبياء السابقين:

جرت عادة الزعماء والرؤساء ـ في الغالب ـ أنهم يحطون من قدر بعضهم، ويتناول بعضهم الآخر بالتنقيص بدافع الغيرة والحسد، أما الأنبياء فقد اصطفاهم الله سبحانه وطهرهم من هذه الآفات، فقد كان نبينا ﷺ يثني على إخوانه المرسلين ـ رسل الأمم الأخرى ـ فيقول عن عيسى عليه السلام: ((أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علاّت، ليس بيني وبينه نبي))[٥].

وفي رواية: ((أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلاّت، أمهاتهم شتى ودينهم واحد))[٦].

موقف الرسول محمد ﷺ من أهل الكتاب:

حاول النبي محمد ﷺ أن يقرِّب أهل الكتاب ويستميلهم، ليفهمهم أنه صادر من المصدر نفسه الذي صدر منه عيسى عليه السلام، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

---

[١] متفق عليه .

[٢] متفق عليه .

[٣] مختصر الشمائل المحمدية للألباني (١٨٢) .

[٤] نفس المصدر (١٨٣) .

[٥] رواه البخاري (٣٤٤٢) .

[٦] رواه البخاري (٣٤٤٣) .

((كان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب، فيما لم يؤمر فيه، وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، فسدل النبي ﷺ ناصيته ثم فرق بعد))[1].

وقد أكد القرآن على أن أقرب الناس للمؤمنين برسالة محمد ﷺ، الذين قالوا إنا نصارى، وهم من كانوا ـ حقاً ـ على دين عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ٨٣] .

المسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين:

والمسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين، ويعظمونهم، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

حكم الإسلام فيمن تنقص أحد الأنبياء ولم يؤمن به:

إنَّ من العقيدة الإسلامية أنه لا يكون الإنسان مسلماً حتى يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين ويحبهم ويحترمهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢] .

موقف أهل الكتاب من النبي محمد ﷺ:

نستطيع أن نقسِّم أهل الكتاب في موقفهم من النبي محمد ﷺ إلى ثلاثة أقسام: عقلاء، وسذج، وحاقدين .

موقف العقلاء من أهل الكتاب تجاه النبي ﷺ:

لقد علم العقلاء والمخلصون من أهل الكتاب أن نبي الله محمداً ﷺ سيخرج في الزمن الذي سيخرج فيه، وقد كانوا قرأوا ذلك في كتبهم، ومن هؤلاء العقلاء الذين ذكرتهم كتب السنن والسِيَر:

---

[1] رواه البخاري (٥٩١٧) .

١- بحيرا الراهب: الذي قال لأبي طالب وأشياخٍ من قريش عندما نزلوا قريباً منه أثناء رحلتهم إلى الشام ـ وكان معهم النبي محمد ﷺ ـ: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك ؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبقَ حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة، أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة[1].

وفي السيرة النبوية لابن هشام[2]: أن الراهب بحيرا لما فرغ، أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك ؟ قال: ابني، قال له بحيرا: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه ؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود .

٢- ورقة بن نوفل: وكان رجلاً تنصَّر ولقي من بقي من الرهبان على دين عيسى عليه السلام ولم يُبدِّل، فلما نزل الوحي على رسول الله ﷺ ورجع إلى خديجة رضي الله عنها وهو يقول: ((زملوني زملوني))، وأخبرها الخبر، وقال: ((لقد خشيت على نفسي))، . . . فذهبت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم ؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي[3].

٣- النجاشي: لما هاجر الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة وعاشوا فيها بأمان، فلما بلغ ذلك قريشاً، أرسلوا إلى النجاشي يطلبون منه أن يسلِّمهم المسلمين، وحرَّضوه عليهم، فلما استوثق النجاشي من المسلمين وسألهم عن دينهم وما يقولون في عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، قال لهم: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي، ـ والشيوم: الآمنون ـ من سبّكم غرم، ما أحب أنَّ لي دَبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم . والدَبر بلسان الحبشة: الجبل[3].

---

[1] رواه الترمذي (٣٦٢٠) (باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٨٦٢) .

[2] (١٨٢/١) دار المعرفة بيروت .

[3] انظر صحيح البخاري حديث رقم (٣) (كتاب بدء الوحي) .

[4] السيرة النبوية لابن هشام (٣٣٧/١) .

موقف السذج من أهل الكتاب تجاه النبي محمد ﷺ:

ومن هؤلاء السذج: هرقل ملك الروم، فبالرغم من أنه رجل حزّاء ينظر في النجوم، وكان ذكياً، وقد علم حقاً بصدق نبوة محمد ﷺ ولذلك سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي ﷺ وأحواله وأتباعه، ولمّا أجابه أبو سفيان وتطابق الخبر مع ما عنده من علمٍ عن هذا النبي، قال له: إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أَني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمتُ لقاءَه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[1].

ولما أرسل إليه النبي ﷺ خطاباً يدعوه فيه ومن معه إلى الإسلام، جمع هرقل عظماء الروم يستشيرهم في الدخول بالدين الجديد، فإن وافقوه دخل معهم في الدين الجديد وسَلِم له ملكه بإسلامهم، فجمعهم في مكانٍ لهم بحمص، ثم أمر بالأبواب فغُلِّقت، ثم قال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه[2].

موقف الحاقدين من أهل الكتاب تجاه النبي محمدﷺ:

من أكثر الحاقدين على الإسلام ونبيه، اليهود، فقد كانوا منذ العهد الأول للنبي محمد ﷺ وهم يجاهرون بالحقد والعداوة، ويختارون أنواعاً من الحيل لقتل الرسول محمد ﷺ مع ما كان بينهم وبينه من عهود ومواثيق، ويوم أن ذهب إليهم رسول الله ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دفع دية رجلين ـ وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة ـ، اغتنموها فرصةً لقتله، وقالوا له: اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، وأجلسوه إلى جنب جدار، وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وتآمروا بقتله، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟ فانبرى له أشقاهم عمرو بن جحاش، ولما عزموا على تنفيذ خطتهم، نزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يخبره بما هموا به، فقام مسرعاً وتوجه إلى المدينة، وكان ذلك نقضاً للعهد[3].

---

[1] صحيح البخاري حديث رقم (٧) .

[2] نفس المصدر .

[3] انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري (٢٩٤ ـ ٢٩٥) .

موقف الحاقدين في العصر الحديث:

لم يكتفِ أعداء الإسلام، والحاقدون على النبي محمد ﷺ ودينه في العصر الحديث، بأن يتهموا الإسلام والمسلمين بالإرهاب، والسخرية بالدين الإسلامي وتعاليمه السمحة، بل ذهب سفهاؤهم إلى النيل من الرسول القدوة والرحمة المهداة، ضاربين عرض الحائط بكل القيم والاعتبارات، حيث قامت بعض الصحف الدانماركية بنشر صورٍ ورسوم زعموا أنها للرسول محمد ﷺ، يصفونه فيها تارةً بأنه إرهابي يحمل في عمامته قنبلة، وتارة على هيئة شاب مخنَّث، وقد كتبوا تحت الصورة عبارة: (من يستطيع أن يُثبت أن محمداً ليس امرأة ؟) . وغير ذلك من الرسوم التي لا تليق بأراذل الناس فضلاً عن عظمائهم ورسل ربهم .

حكم السخرية في الإسلام:

لقد حرَّم الإسلام السخرية بالآخرين، لأن السخرية خلق ذميم، ونقص في شعور وخُلُق الذام اللئيم، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات: ١١] .

ولو كانوا أهل حق لقابلوا الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، ولكنه أسلوب المفاليس .

حكم سب الرسول ﷺ والتنقص منه في الإسلام:

أخرج أبو داود في سننه في كتاب الحدود (باب الحكم فيمن سب رسول الله ﷺ) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أعمى كانت له أم ولد كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، قال: فلما كان ذات ليلةٍ جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المعول فوضعه في بطنها واتكأ عليه فقتلها..، الحديث وفيه أن النبي ﷺ قال: ((ألا اشهدوا أنَّ دمها هدر))[1].

واجب المسلمين تجاه نبيهم ﷺ:

إن واجب المسلمين تجاه نبيهم ﷺ أن ينصروه ويذبوا عنه، ويلتزموا بدينه، ويذبوا عن سنته، وإليكم بعض الأمور التي يمكننا من خلالها القيام بواجب حقه ﷺ تجاه هذه الهجمة الشرسة عليه:

---

[1] انظر حديث رقم (٤٣٦١) .

أ ـ على مستوى الأفراد:

١ـ تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر .

٢ـ الالتزام بأمر الله تعالى لنا بحبه ﷺ، بل تقديم محبته على النفس والمال والولد، لقوله ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين))[١].

٣ـ الانقياد لأمر الله تعالى بالدفاع عن النبي ﷺ، ومناصرته وحمايته من كل أذى يراد به، أو نقص يُنسب إليه، قال تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩] .

٤ـ قراءة سيرته، وتعلم سنته، والحرص على الاقتداء به دون غيره .

٥ـ الحذر والبعد عن الاستهزاء بشيء من سنته ﷺ .

٦ـ بغض أي منتقض للنبي ﷺ أو لشيء من سنته .

٧ـ محبة آل بيته، وأزواجه، وأصحابه، وذريته، والتقرب إلى الله بحبهم .

٨ـ الحذر من الطعن بأحدٍ من آل بيته أو أزواجه أو أصحابه، مع بغض الطاعن والتحذير منه .

ب ـ على مستوى الأسرة والمجتمع:

١ـ تربية الأبناء على محبته ﷺ والاقتداء به .

٢ـ اقتداء الأزواج في معاملة أهل بيتهم بالرسول ﷺ .

٣ـ تشجيع الأبناء على حفظ الأذكار النبوية وتطبيقها في حياتهم .

٤ـ تعريف الأسرة المسلمة بحياة الرسول ﷺ .

٥ـ تشجيع الأبناء على اقتطاع جزء من مصروفهم اليومي من أجل التطبيق العملي لبعض أحاديثه ﷺ مثل: كفالة اليتيم، إطعام الطعام، مساعدة المحتاج .

ج ـ على مستوى قطاع التعليم:

١ـ زرع محبته ﷺ والتأسي به، في نفوس الطلبة والطالبات .

٢ـ حث مسؤولي قطاعات التعليم على إضافة مادة السيرة النبوية إلى مناهج التعليم .

٣ـ تشجيع البحث العلمي في السيرة النبوية، وحث الباحثين على تصنيف الكتب في السيرة والشمائل والمغازي بأسلوب معاصر .

٤ـ إقامة مسابقات سنوية للطلبة والطالبات في السيرة النبوية .

---

[١] رواه مسلم .

د ـ على مستوى العلماء وطلاب العلم:

١ـ العمل على إحياء السنة النبوية في نفوس الناس .

٢ـ وجوب التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة وبيانها للناس .

٣ـ تحذير الناس من البدع في الدين، والمحدثات التي شوَّهت جمال الإسلام وحالت دون تقدمه .

٤ـ التحذير من الغلو فيه ﷺ، أو إنزاله في منزلة الألوهية، وذلك بالتحذير من الغلو الذي حذَّر منه النبي ﷺ في قوله: ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)) .

٥ـ دحض وتفنيد الشبهات والأباطيل التي تثار حول الرسول ﷺ وسنته وسيرته .

هـ ـ على مستوى المفكرين والإعلاميين:

١ـ التصدي للإعلام الغربي واليهودي، والرد على ما يثيرونه من شبهات وأباطيل عن ديننا ونبينا محمد ﷺ .

٢ـ عقد الندوات والمنتديات الثقافية لإبراز منهجه وسيرته، ومواقفه في كافة القضايا .

٣ـ تخصيص برامج معينة في الصحف والمجلات والإعلام المرئي والمسموع لبيان الآيات والأحاديث التي تدل على وجوب محبته، وإبراز هديه في كل قضية من قضايا الحياة للتأسي به ﷺ .

٤ـ إنشاء مواقع على الشبكة العنكبوتية ـ الإنترنت ـ لإبراز محاسن الدين، وإظهار سيرته والجانب العقدي والعملي من سنته واستخراج الحلول للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مستقاة من سنته وهديه .

و ـ على مستوى الأغنياء والحكومات في الدول العربية والإسلامية:

١ـ دعم النشاطات الدعوية والتعليمية والتربوية المتعلقة بالسنة والسيرة النبوية .

٢ـ طباعة المطويات والملصقات التي تحمل بعض الأحاديث والمواعظ النبوية .

٣ـ المساهمة في دعم الإعلام المقروء والمرئي والمسموع، الذي يتحدث عن سنته وهديه ويتبنى ذلك كقضية أساسية في عمله .

٤ـ استئجار دقائق في الأقنية والإذاعات الأجنبية لعرض أطروحات عن الإسلام ونبيه ﷺ .

٥ـ مساعدة طلاب العلم والباحثين في السنة النبوية ليتمكنوا من تحقيق أهدافهم في الدعوة إلى السنة ونشرها والعمل بها .

هذا، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .



المباحث العقدية المتعلقة بحديث بدء الوحي

فضيلة الشيخ الدكتور أبي بكر بن سالم الشهال❖

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد ،

فهذه دراسة لأهم الجوانب العقدية المتعلقة بحديث بدء الوحي، سائلاً الله تعالى فيها التوفيق والسداد ، وقد قسمت هذه الدراسة إلى تمهيد وستة مباحث أساسية ، وهي كالتالي:

التمهيد في حاجة الخلق للرسالة:

المبحث الأول: في تعبد النبي ﷺ قبل البعثة .

المبحث الثاني: الوحي وما يتعلق به .

المبحث الثالث: النبوات .

المبحث الرابع: الإيمان بالكتب المنزلة .

المبحث الخامس: الإيمان بالملائكة .

المبحث السادس: فضائل ورقة وخديجة رضي الله عنها .

وأبدأ أولاً بذكر الحديث موضوع الكلام:

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حِرَاء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينـزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حِراء فجاءه الملك فقال: اقرأ ، قال: ((ما أنا بقارئ)) قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ ، قلت: ((ما أنا بقارئ)) فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني

❖ محاضر بالمعاهد الشرعية في شمال لبنان، حائز على الإجازة العالية من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية الحديث ونال درجتي الماجستير والدكتوراه من نفس الجامعة قسم العقيدة، وكانت أطروحته بعنوان تخريج الأحاديث والآثار المتعلقة بالعقيدة من كتاب التمهيد لابن عبد البر .

الجهد ثم أرسلني، فقال : اقرأ، فقلت: ((ما أنا بقارئ))، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم ﴾ [العلق: ١-٣] .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: ((زملوني زملوني)) فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: ((لقد خشيت على نفسي)) . فقالت خديجةُ: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصر في الجاهليةِ، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك! فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ ((أو مُخْرِجيَّ هم؟) . قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومُك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[1].

وهذا أوان الشروع في دراسة هذه المباحث المشار إليها:

التمهيد: وهو في حاجة المكلفين إلى إرسال رسل وإنزال كتب، وحسبنا أن نبرز هذه الحاجة في هذه الأمور:

الأول: في حاجته إلى الرسالة لعبادة ربه .

والثاني: في حاجته لها للتعامل مع الناس .

والثالث: بيان جزاء العباد في الآخرة .

أما الأمر الأول، فلا شك ولا ريب أن أي إنسان في هذه الدنيا مفطور على عبادة ربه والتقرب إليه، فهو إن وصل إلى توحيد الله تعالى ومعرفته بعقله أو بفطرته، وهذا لا يكون إلا لفئة قليلة من الناس، كما حصل مع المتحنفين أو المتنصرين، قبيل البعثة، حيث دفعتهم فطرتهم وعقولهم إلى نبذ ما عليه أهل الجاهلية، فطافوا في البلاد فمنهم من

---

[1] رواه البخاري (٣) في كتاب بدء الوحي، (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ)، ومسلم (١٦٠) كتاب الإيمان (باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ) .

تهود ومنهم من تنصر ومنهم من بقي حنيفياً، وذلك لحاجتهم إلى معرفة كيفية العبادة، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ، كما هو مدون في كتب السير.

هذا وإن وصل أحدهم إلى التوحيد بفطرته لكنه لا يستطيع أن يصل إلى كيفية التعبد وفروع الشريعة بها، فلا بد إذن من إرسال رسل تعلم الناس كيفية العبادة الموصلة لله تعالى.

والأمر الثاني، وهو أن الناس بحاجة إلى أن يعامل بعضهم بعضاً، فلا بد من خلافات وخصومات كما هو مشاهد، حيث يرى كل إنسان ما له عدلاً، وما عليه جوراً وظلماً[1]، فحاجة الإنسان إلى الأنبياء والرسل أشد من الحاجة إلى الطعام والشراب والهواء، لأن فقد هذه الأمور تفقد الحياة، وأما عدم الإيمان بالنبوة ففيه خسران الآخرة وهو الأمر الثالث، حيث إن الناس بحاجة إلى من يعرف مآلهم ويرغبهم في السير في الطاعة الموصلة للسعادة الأبدية، ويرهبهم ويخوفهم من النكوص والاستكاف عن طريق الهدى لئلا يقعوا في مهاوي الردى.

ولابن تيمية رحمه الله كلام طويل جميل في حاجة الخلق للرسالة، أختصر منه بعض فقراته، قال: (والرسالة ضرورية للعباد لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة: روح العالم، ونوره، وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن، كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمَّى الله تعالى رسالته روحاً والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة قال الله تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾[الشورى:٥٢] فذكر هنا الأصلين وهما الروح والنور. فالروح: الحياة، والنور: النور... ثم قال رحمه الله: (فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه) .

---

[1] انظر: دلائل التوحيد للعلامة محمد جمال الدين القاسمي (١٤٠) .

فالأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم .

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة وبيان ما يحبه الله وما يكرهه .

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب .

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلقِ والأمرِ، والسعادةُ والفلاحُ موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يُداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب، فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبداً، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلا باتباع الرسول)[1].

المبحث الأول: في تعبد النبي ﷺ قبل البعثة .

وقع الخلاف في عبادة النبي ﷺ قبل بعثته هل كان متعبداً بشريعة من قبله أم لا؟

قال القرطبي في المفهم[2]: (واختلف في عبادة النبي ﷺ قبل مبعثه، هل كانت لأنه كان متعبداً بشريعة مَن قبله؟ أم كانت لما جعل الله في نفسه، وشرح به صدره من نور المعرفة؟ ومن بغضه لما كان عليه قومه من عبادة الأوثان، وسوء السيرة، وقبح الأفعال، فكان يفرّ منهم بغضاً، ويخلو بمعروفه أُنساً ؟

ثم الذين قالوا: إنه كان متعبداً بشريعة، فمنهم من نسبه إلى إبراهيم عليه السلام، ومنهم من نسبه إلى موسى عليه السلام، ومنهم من نسبه إلى عيسى عليه السلام، وكل هذه أقوال متعارضة، لا دليل قاطع على صحة شيء منها، والأصح القول الأول، لأنه لو كان متعبداً بشيء من تلك الشرائع لعُلم انتماؤه لتلك الشريعة، ومحافظته على أحكامها، وأصولها وفروعها، ولو عُلم شيء من ذلك لنُقلَ، إذ العادة تقتضي ذلك، لأنه ﷺ ممن تتوفر الدواعي على نقل أحواله، وتتبع أموره، ولمّا لم يكن شيء من ذلك، عُلم صحة القول الأول) .

---

[1] مجموع الفتاوى (١٩/٩٣-٩٧) .

[2] المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (١/٣٧٥) .

وتعرض لهذه المسألة تلميذه (القرطبي المفسر) في تفسيره فذكر نحواً مما ذكر صاحب المفهم وزاد عليه فقال[١]: (وتكلم العلماء في نبينا ﷺ هل كان متعبداً بدين قبل الوحي أم لا ؟ فمنهم من منع ذلك مطلقاً وأحاله عقلاً، قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عرف تابعاً، وبنوا هذا على التحسين والتقبيح .

وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه الصلاة والسلام وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يحل الوجهين منهما العقل ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل وهذا مذهب أبي المعالي .

وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبداً بشرع من قبله وعاملاً به ثم اختلف هؤلاء في التعيين: فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى عليه السلام فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها فلا يجوز أن يكون النبي ﷺ على دين منسوخ وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم عليه السلام لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى عليه السلام لأنه أقدم الأديان .

وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دين ولكن عين الدين غير معلومة عندنا .

وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة وإن كان العقل يجوز ذلك كله والذي يقطع به أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن منسوباً إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحداً من أمته، ومخاطباً بكل شريعته، بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جل وعز، وأنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل . ولا سجد لصنم ولا أشرك بالله ولا زنى ولا شرب الخمر .... وكذلك المعروف من سيرته عليه الصلاة والسلام وتوفيق الله إياه له أنه كان قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج وكان يقف هو بعرفة لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام، فإن قيل: فقد قال الله تعالى : ﴿ قل بل ملة إبراهيم ﴾ [البقرة : ١٣٥] وقال: ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم ﴾ [النحل: ١٢٣] وقال: ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ [الشورى:١٣] وهذا يقتضي أن يكون متعبداً بشرع، فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدين) .

هذا وقد اشتهر بين المفسرين وأهل السير أنه ﷺ كان على دين إبراهيم عليه السلام، قال ابن الجوزي رحمه الله[٢]: (وقد اشتهر في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام أنه

---

[١] تفسير القرطبي (٤٩/١٦)

[٢] زاد المسير (٢٩٨/٧-٢٩٩) .

كان قبل النبوة يوحِّد الله، ويبغض اللات والعزى ويحج ويعتمر ويتبع شريعة إبراهيم عليه السلام)، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه فهو قول سوء . أليس كان لا يأكل ما ذبح على النصب ؟

وقال ابن قتيبة: قد جاء في الحديث أنه كان على دين قومه أربعين سنة ومعناه أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إسماعيل، من ذلك: حج البيت والختان وإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثاً، وأن للزوج الرجعة في الواحدة والاثنتين ودية النفس مائة من الإبل والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإيمان بالله والعمل بشرائعهم في الختان والغسل والحج وكان لا يقرب الأوثان ويعيبها، وكان لا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه فذلك قوله (ما كنت تدري ما الكتاب) يعني القرآن (ولا الإيمان) يعني شرائع الإيمان ولم يرد الإيمان الذي هو الإقرار بالله لأن آباءه الذين ماتوا على الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجون له البيت مع شركهم . اهـ .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في أثناء شرحه للحديث: أن (التحنث) هو التحنف، فقال: (فيتحنث) هي بمعنى يتحنّف، أي يتبع الحنيفية وهي دين إبراهيم عليه السلام، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم، وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة (يتحنف) بالفاء[١]. ولم يتعرض لبقية الأقوال في هذه المسألة .

وقد نقل الكرماني عن ابن الأعرابي أنه سئل عن قوله (يتحنّث) فقال: لا أعرفه، وسألت أبا عمرو الشيباني فقال: لا أعرف يتحنث إنما هو يتحنف من الحنيفية[٢] . اهـ .

ومما يؤيد القول بأنه كان على بقايا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ما رواه ابن إسحاق[٣] بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه سأل عبيد بن عمير بن قتادة الليثي[٤]، قال: حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما تبدى به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبرائيل؟ فقال عبيد: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تتحنث به قريش في الجاهلية - والتحنث التبرز - فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك

---

[١] فتح الباري (٣١/١) .

[٢] انظر شرح البخاري للكرماني (٣٢/١) .

[٣] رواه الطبري في تاريخه (٥٣٢/١) وابن عساكر في تاريخه (١٢/٦٣) من طريق ابن إسحاق، وعزاه لابن إسحاق الذهبي في تاريخ الإسلام (٢٩/١) وابن حجر في الفتح (٤٢٥/١٠) وعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في مختصر السيرة (٩٨- ٩٩)، وهو في سيرة ابن هشام مختصراً (٦٨/٢) .

[٤] انظر: لسان العرب (٣٧٩/١٥) والقاموس المحيط (١٧٢٩) وشرح الكرماني (١٤/١) وفتح الباري (١٤/١) .

الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً، أو ما شاء الله من ذلك..) اهـ .

فهذا يدل على أن العرب كانوا ورثوا بعض العبادات من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومنها الطواف بالكعبة والحج والخلوة للعبادة ...

فعلى ذلك ليس هناك ما يمنع أن يكون النبي ﷺ قد تعبد الله ببعض الشعائر على دين إبراهيم عليه السلام وهي التي بقيت عند العرب إلى وقته، مع الأخذ بالتوحيد الذي هو دين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

المبحث الثاني: الوحي وما يتعلق به . وفيه مسائل:

المسألة الأولى : تعريف الوحي لغة واصطلاحاً:

أ) **الوَحْيُ لغة:** الإعلام في خفاء، والإشارةُ والإيماء والكِتابَةُ والمَكْتُوبُ والرِسالَةُ والإلْهامُ والأمر، والكَلامُ الخَفِيُّ وكُلُّ ما ألْقَيْتَهُ إلى غَيْرِك، والتصويت شيئاً بعد شيء، وقيل أصله التفهيم. ويقال: أوحى ووحى .

والوحَى، والوحاء: السرعة، يقال: الوحاء الوحاء، أو الوحَى الوحَى، أي الإسراع[1] فدلّ هذا أن أصلها يدور على معنيين أصليين: الإعلام في خفاء، والسرعة، ولذا قال القرطبي في المفهم : "إلقاء الشيء في سرعة" ونحوه قال الكرماني، وقيل: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره[1].

وقد ورد في القرآن الكريم عدة استعمالات للوحي باعتبار معناه اللغوي الذي تقدمت الإشارة إليه، فمن ذلك:

١. الإلهام الفطري كالوحي إلى أم موسى .
٢. والإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل .
٣. والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء، كإيحاء زكريا لقومه .
٤. ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان .
٥. وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمرٍ ليفعلوه[2].

---

[1] انظر: شرح الكرماني على البخاري (١/ ١٤) والمفهم للقرطبي (٣٧٤/١) ومباحث في علوم القرآن للقطان (٣٢) .

[2] انظر: مباحث في علوم القرآن (٣٢-٣٣) .

هذا وقد سمى ابن تيمية رحمه الله الوحي من الله بهذه الأمور التي تقدمت (الوحي العام) قال: وليس كل من أوحي إليه (الوحي العام) يكون نبياً، فإنه قد يوحى إلى غير الناس، قال تعالى: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾ [النحل: ٦٨] وقال تعالى: ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ [فصلت: ١٢] وقال تعالى عن يوسف عليه السلام وهو صغير: ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ [يوسف: ١٥] وقال تعالى: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ [القصص:٧] وقال تعالى: ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ﴾[١] [المائدة: ١١١] .

ب) الوحي في اصطلاح الشرع:

الوحي ـ مصدراً ـ : هو الإعلام بالشرع .

وقد يطلق ويراد به اسم المفعول منه أي الموحى، قال الحافظ ابن حجر: وهو كلام الله المنزل على النبي ﷺ، وقال الكرماني: المنزل على نبي من أنبيائه"[٢] وهو أدق وأشمل .

المسألة الثانية: أنواع الوحي:

ينقسم الوحي إلى ثلاثة أنواع أساسية ذكرها الله في القرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحيَ بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم ﴾ [الشورى : ٥١] .

قال ابن جرير رحمه الله: (وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا وحياً يوحي الله إليه كيف شاء أو إلهاماً وإما غيره ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ يقول: أو يكلمه بحيث يسمع ولا يراه كما كلم موسى نبيه ﷺ ﴿أو يرسل رسولاً﴾ يقول: أو يرسل الله من ملائكته رسولاً إما جبرائيل وإما غيره)[٣].

قال البيهقي في تفسير هذه الآية: قال بعض أهل التفسير: فالوحي الأول، ما أرى الله سبحانه وتعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في منامهم، كما أمر إبراهيم عليه السلام في منامه بذبح ابنه، فقال فيما أخبر عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى

---

[١] النبوات لابن تيمية (٢/٦٩٠) .

[٢] انظر : شرح الكرماني (١/١٤) والفتح (١/١٥) .

[٣] تفسير الطبري (١١/ ١٦٢) .

قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾ [الصافات:١٠٢] قال الإمام المطلبي الشافعي ﷺ: قال غير واحد من أهل التفسير: رؤيا الأنبياء وحي، لقول ابن إبراهيم الذي أُمر بذبحه: ﴿افعل ما تؤمر﴾ . اهـ .

وروى البخاري[١]عن عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي وقرأ ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه [٢].

وروى البيهقي وابن وهب عن ابن شهاب أنه سئل عن هذه الآية: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم﴾ [الشورى:٥١] .

قال نرى هذه الآية تعدّ من أوحى الله إليه من البشر، فالكلام: ما كلم الله به موسى من وراء حجاب، والوحي، ما يوحي الله إلى النبي ﷺ من الهداية، فيثبت الله ما أراد من وحيه في قلب النبي ﷺ فيتكلم به النبي ﷺ ويكتبه، فهو كلام الله ووحيه، ومنه ما يكون بين الله وبين رسله لا يكلم به أحد من الأنبياء أحداً من الناس، ولكنه يكون سرّ غيب بين الله وبين رسله .

ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه ولكنهم يحدثون به الناس ويأمرونهم ببيانه، ويبينون لهم أمرهم أن يبينوه للناس ويعلموهم إياه .

ومن الوحي: ما يرسل الله من يشاء من ملائكته فيوحيه وحياً في قلوب من يشاء من رسله، وقد بين لنا في كتابه أنه كان يرسل جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام فقال في كتابه: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ [البقرة: ٩٧] وقال ﷻ: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ إلى قوله: ﴿ بلسان عربي مبين ﴾[٣]. [الشعراء: ١٩٥]

ونقل القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وحياً ﴾ عن مجاهد قوله: (نفث ينفث في قلبه فيكون إلهاماً ومنه قوله ﷺ: ((إن روح القدس نفث في روعي))...الخ وقيل: (إلا وحياً) رؤيا يراها في منامه قاله محمد بن زهير... وقيل: (إلا وحياً) بإرسال جبريل ﴿ أو من وراء حجاب﴾ كما كلّم موسى ﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ إلى الناس كافة[٤].

---

[١] صحيح البخاري (١٣٨) كتاب الوضوء (باب التخفيف في الوضوء) ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٥٣) .

[٢] رواه ابن أبي حاتم (٣٢٢١/١٠)، والحاكم (٢/ ٤٦٨ و٤/ ٤٣٨) وصححه، وذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٢٥٣) وابن عبد البر في التمهيد (٣٩٣/٦) .

[٣] رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٥٧) وعزاه ابن عبد البر (١١٣/٢٢) لابن وهب .

[٤] تفسير القرطبي (٤٨/١٦) .

قلت: استدلاله بالحديث إن روح القدس نفث في روعي، لا يستقيم هاهنا لأن القسم الأول من الوحي ذكر بلا واسطة، والقسم الأخير (الثالث) ذكر بواسطة الملك، ومنه النفث في الروع . فحمله على الإلهام أو المنام أو ما يشبهه أسلم . والله أعلم .

هذا وقد عمم ابن تيمية رحمه الله صدر الآية ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ عمم في الأنبياء وغيرهم، فقال: يتناول وحي الأنبياء وغيرهم كالمحدثين الملهمين كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم))[1]وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب وإلهام وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم[2].

وقد ثبت في الصحيح[3] عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)) .

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

ففي هذا الحديث دلالة على أن الوحي على رسول الله ﷺ له حالتان، وهذا يعني أنه الوحي الذي بواسطة الملك للرواية الأخرى في البخاري (كل ذلك يأتي الملك) والملك قد يأتي على حالات وهيئات، وهذا لا ينفي أن يكون هناك أنواع أخرى للوحي كما في الآية: حالة الوحي المجرد، وحالة الكلام من وراء حجاب .

هذا وقد جعل ابن القيم رحمه الله للوحي مراتب فقال:

---

[1] البخاري (٣٤٦٩) في كتاب أحاديث الأنبياء (باب حديث الغار) ومسلم (٢٣٩٨) في كتاب فضائل الصحابة (باب من فضائل عمر) .

[2] النبوات (٢/٦٩١-٦٩٣) .

[3] البخاري (٢) في كتاب بدء الوحي (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ) ومسلم (٢٣٣٣) في كتاب الفضائل (باب عرق النبي ﷺ في البرد، وحين يأتيه الوحي) . قوله: (فيفصم) يقلع وأصل الفصم القطع من غير إبانة (ليتفصد) يسيل من الفصد وهو قطع العرق لإسالة الدم .

وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة:

إحداها: الرؤيا الصادقة وكانت مبدأ وحيه ﷺ وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال النبي ﷺ: ((إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته))[1].

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه فثقلت عليه حتى كادت ترضها[2].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في النجم : (٧ ـ ١٣) .

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى عليه السلام قطعاً بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب وهذا على مذهب من يقول : إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف وإن كان جمهور الصحابة رضي الله عنهم بل كلهم مع عائشة رضي الله عنها كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعاً للصحابة[3].

---

[1] رواه الطبراني في الكبير (٧٢/٤. مجمع الزوائد) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وله شاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند الحاكم (٤/٢) وآخر من حديث جابر رضي الله عنه عند ابن ماجه (٢١٤٤)، وآخر من حديث حذيفة رضي الله عنه عند البزار (المجمع ٧١/٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٨٥) وشعيب وعبد القادر الأرناؤوط في تعليقهما على زاد المعاد .

[2] رواه البخاري تعليقاً في كتاب الصلاة (باب ما يذكر في الفخذ) .

[3] زاد المعاد (٧٨/١ ـ٨٠).

قلت: لا أجد فرقاً بين السادسة والسابعة، ولذلك لم يعدها عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب[١] رحمهما الله، بل قال: قال ابن القيم: زاد بعضهم مرتبة سابعة، وهي تكلم الله له بغير حجاب . قلت: وهي الثامنة من كلام ابن القيم رحمه الله .

وقد ذكر ابن الشيخ محمد رحمه الله أن بعضهم زاد مرتبة أخرى وهي: العلم الذي يلقيه الله في قلبه، وعلى لسانه عند الاجتهاد في الأحكام، لأنه عليه الصلاة والسلام إذا اجتهد أصاب قطعاً وكان معصوماً من الخطأ، وهذا خرق للعادة في حقه دون الأمة، وهو يفارق النفث في الروع من حيث حصوله بالاجتهاد، والنفث بدونه [٢]. اهـ .

أما الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى فقد حصر هذه الأنواع في صفتين: **صفة الوحي**، كمجيئه كدوي النحل، والنفث في الروع...وصفة **حامل** الوحي كمجيئه في صورته التي خلق عليها...[٣]، وكل صفة تحتها صور .

وقد استشكل حصر الحديث السابق الوحي بهاتين الحالتين (كالصلصلة، وتمثل الملك رجلاً) مع وجود حالات أخرى، والجواب من جهتين:

الأولى: أنه لا يمنع أن يكون الوحي على هاتين الحالتين ولو تشكل الملك بهيئات مختلفة .

والثانية[٤]: أن يحمل حديث الحارث بن هشام ﷺ على الوحي المختص بالقرآن، وهذا هو المتبادر للذهن من سؤاله عن الوحي، وهو ما يدل عليه سياق الحديث، ويدل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان يعاني من التنزيل شدةً، وذلك حينما أنزل الله عليه: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾[٥].

وأما الوحي بغير القرآن فيكون في حالات أخرى، كالرؤيا والنفث في الروع، والإلهام، وكما رآه على صورته التي خلقه الله عليه، وكما كان يرى على صورة رجل أمام الصحابة كحديث جبريل المشهور فإنه وحي ولكنه ليس قرآناً، والله أعلم .

هذا وقد أجاب الحافظ ابن حجر فقال:

والجواب: منع الحصر في الحالتين المقدم ذكرهما وحملهما على الغالب أو حمل ما يغايرهما على أنه وقع بعد السؤال أو لم يتعرض لصفتي الملك المذكورتين لندورهما فقد

---

[١] مختصر السيرة للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (١٠٦).

[٢] المصدر نفسه (١٠٦) .

[٣] انظر الفتح (٢٧/١) .

[٤] هذا جواب من عندي بعد النظر في عموم هذه الحالات، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان. والله يعفو ويغفر.

[٥] رواه البخاري (٥) في كتاب بدء الوحي (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ) ومسلم (٤٤٨) في كتاب الصلاة (باب الاستماع للقراءة).

ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنه لم يره كذلك إلا مرتين أو لم يأتِه في تلك الحالة بوحي أو أتاه به فكان على مثل صلصلة الجرس فإنه بيَّن بها صفة الوحي لا صفة حامله وأما فنون الوحي فدوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين كما في حديث عمر ﷺ يسمع عنده كدوي النحل، والصلصلة بالنسبة إلى النبي ﷺ . فشبهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبهه هو ﷺ بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه . وأما النفث في الروع، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين فإذا أتاه الملك في مثل صلصلة الجرس نفث حينئذ في روعه، وأما الإلهام فلم يقع السؤال عنه لأن السؤال وقع عن صفة الوحي الذي يأتي بحامل وكذا التكليم ليلة الإسراء...".[1] .

هذا هو الوحي عند أهل السنة والجماعة فما هو الوحي عند الفلاسفة وغلاة المتصوفة والملحدين؟ وهذا ما سنتكلم عليه في المسألة التالية:

المسألة الثالثة: الوحي عند الفلاسفة وغلاة المتصوفة والملحدين: الوحي عندهم هو عبارة عن اجتماع خاصيتين في شخص ما:

الخاصة الأولى: أن يكون له قوة قدسية وهي قوة الحدس بحيث يحصل له من العلم بسهولة ما لا يحصل لغيره إلا بكلفة شديدة وقد يعبرون عن ذلك بأنه يدرك الحد الأوسط من غير احتياج إلى ما يحتاج إليه من ليس مثله، وحاصل الأمر أنه أذكى من غيره وأن العلم عليه أيسر منه على غيره .

الخاصة الثانية: قوة التخييل والحس الباطن بحيث يتمثل له ما يعلمه في نفسه فيراه ويسمعه فيرى في نفسه صوراً نورانية هي عندهم ملائكة الله، ويسمع في نفسه أصواتاً هي عندهم كلام الله، من جنس ما يحصل للنائم في منامه، ومن جنس ما يحصل لبعض أهل الرياضة...[2].

ويترتب على هذا أنهم يقولون: إن ما أخبرت به الرسل من أمور الربوبية واليوم الآخر إنما هو تخييل وأمثال مضروبة لا أنه إخبار عن الحقائق على ما هي عليه[3].

ويترتب عليه أمور أخرى سنذكرها في حينها إن شاء الله تعالى .

---

[1] الفتح (٢٧/١) .

[2] انظر الصفدية لابن تيمية (١/ ٦)

[3] المصدر نفسه (٧/١)

المسألة الرابعة : الوحي كلام الله :

ومما يتعلق بمسألة الوحي ويتفرع عنها: مسألة صفة الكلام لله تعالى، فقد اختلفت أصحاب المقالات في كلام الله تعالى اختلافاً كثيراً، وهناك أقوال مشهورة اشتهرت بها بعض الفرق خلافاً لأهل السنة والجماعة .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي مقرراً عقيدة أهل السنة:

وإن القرآن كلام الله منه بدا **بلا كيفية قولاً**، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى **بالحقيقة** ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿سأصليه سقر﴾ فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر .

قلت: في هذه الفقرة من كلام الإمام أبي جعفر رحمه الله أربع مسائل مهمة متعلقة بعقيدة أهل السنة في الكلام:

الأولى: كلام الله منه بدا، فيه ردٌ على المعتزلة الذين يقولون لم يبدُ من شيء، وأن الكلام خلقٌ خلقه الله سماه كلاماً، وأضافه إليه إضافة تشريف .وفيه ردٌّ أيضاً على القائلين بأن كلام الله كلام نفسي، لم يتكلم به حقيقة، وإنما عبر جبريل عما في نفس الله تعالى فكان قرآناً أو توراة ..

الثانية: قوله بلا كيفية قولاً، ردٌّ أيضاً على الممثلة الذين يقولون إن كلام الله مثل كلام البشر .

وردٌّ على الذين يقولون إن كلام الله تعالى كلام نفسي، ولم يتكلم به حقيقة، لأنه لو كان كلاماً نفسياً لما احتاج أن يقول بلا كيفية قولاً .

وكذلك الأمر في قوله: (وأيقنوا أنه كلام الله تعالى **بالحقيقة**) .

وفي قوله (قولاً) ردٌّ على المعتزلة الذين يزعمون أن الله لم يتكلم وإنما خلق الكلام، كما سوف يأتي من كلام ابن أبي العز رحمه الله تعالى .

الثالثة: أن كلام الله غير مخلوق، لأنه صفة من صفاته .

الرابعة: أن من زعم أن كلام الله مخلوق فقد كفر .

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله شارحاً قول الطحاوي: هذه قاعدة شريفة وأصل كبير من أصول الدين ضل فيه طوائف كثيرة من الناس وهذا الذي حكاه الطحاوي

رحمه الله هو الحق الذي دلّت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال، ثم سردها [١].

وأنا أذكر منها ثلاثة لأنها الأشهر، بالإضافة إلى قول أهل السنة .

أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره وهذا قول الصابئة والمتفلسفة، وقد تقدم قبل قليل قول الفلاسفة هذا.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه وهذا قول المعتزلة .

وقد تضمن قول الطحاوي رداً على المعتزلة وغيرهم، فقوله[٢]: كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً: ردٌّ على المعتزلة وغيرهم فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبدُ منه كما تقدم حكاية قولهم قالوا: وإضافته إليه إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله يحرفون الكلام عن مواضعه ! وقولهم باطل فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهي مخلوقة له، كبيت الله وناقة الله بخلاف إضافة المعاني كعلم الله وقدرته وعزته وجلاله وكبريائه وكلامه وحياته وعلوه وقهره، فإن هذا كله من صفاته لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً .

وثالثها: ما ذهب إليه ابن كلاب وتبعه على ذلك الأشاعرة وغيرهم حيث قسم ابن كلاب الكلام إلى نوعين: كلام نفسي وكلام لفظي، وأن المراد بوصف الله بأنه متكلم هو وصف لما في نفس الله وليس أن القرآن الذي نقرأه هو كلامه، وإنما هو عبارة عن كلام الله تعالى، فوصف الكلام بأنه معنى واحد قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً [٣].

وذكر السبكي في تقرير قول ابن كلاب: أن كلامه تعالى لا يتصف بالأمر والنهي والخبر، في الأزل ـ لحدوث هذه الأمور وقِدم الكلام النفسي ـ وإنما يتصف بذلك فيما لا يزال [٤].

---

[١] انظر شرح الطحاوية (١٦٨ـ ١٦٩) .

[٢] المصدر نفسه (١٦٩) .

[٣] انظر: التبصير في الدين للإسفرائيني (١٦٧) وأصول الدين للغزنوي (١٠٣ـ١٠٥) والغنية في أصول الدين لأبي سعيد عبد الرحمن بن محمد المتولي (١٠٩) ومجموع الفتاوى (١٢/١٢٠ـ١٢١) وشرح الطحاوية (١٦٩) .

[٤] طبقات الشافعية (٢/٣٠٠) .

وقال ابن تيمية عن قول الكلابية والأشعرية: يقولون: إن القرآن العربي ليس هو كلام الله، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ثم إما أن يكون خلق في بعض الأجسام، الهواءِ أو غيرِهِ، أو أُلهمه جبريل، فعبر عنه بالقرآن العربي، أو أُلهمه محمدٌ فعبر عنه بالقرآن العربي، أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره[١].

وذكر الذهبي رحمه الله أن ابن كلاب أول من أنشأ هذا القول المخالف المحدث، فقال: وكان يقول : القرآن قائم بالذات بلا قدرة وبلا مشيئة، وهذا ما سبق إليه أبداً[٢].

وأما قول أهل السنة فهم يعتقدون[٣]: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة... والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال وضده من أوصاف النقص قال تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ [الأعراف: ١٤٨] فكان عباد العجل - مع كفرهم - أعرف بالله من المعتزلة فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لا يتكلم أيضاً وقال تعالى عن العجل أيضاً: ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ [طه:٨٩] فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل .

وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم، فيقال لهم: إذا قلنا إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾ [يس:٦٥] فنحن نؤمن أنها تتكلم، ولا نعلم كيف تتكلم، وكذا قوله تعالى : ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ [فصلت:٢١] وكذلك تسبيح الحصا والطعام وسلام الحجر كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقطع الحروف .

وإلى هذا أشار الشيخ (الطحاوي) رحمه الله بقوله: منه بدا بلا كيفية قولاً أي : ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به،وأكد هذا المعنى بقوله قولاً أتى بالمصدر المعرف

---

[١] مجموع الفتاوى (١٢/١٢٠) .

[٢] سير أعلام النبلاء (١١/١٧٥) وانظر مجموع الفتاوى (٦/٥٢٢) .

[٣] انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١٦٩-١٧٠) .

للحقيقة كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ !

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء ـ أحد القراء السبعة ـ: أريد أن تقرأ: ﴿ وكلم اللهَ موسى ﴾ ـ بنصب اسم الله ـ ليكون موسى هو المتكلم لا الله ! فقال أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية كذا ، فكيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ؟ ! فبهت المعتزلي !

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم قال تعالى: ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ ...

وكيف يصح مع هذا أن يكون كلام الرب كله معنى واحداً وقد قال تعالى: ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ﴾ [آل عمران: ٧٧] فأهانهم بترك تكليمهم والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم وهو الصحيح إذ قد أخبر في الآية الأخرى أنه يقول لهم في النار: ﴿ اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا في ذلك هم وأعداؤه سواء ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلاً وقال البخاري في صحيحه: باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة وساق فيه عدة أحاديث فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة وأعلى نعيمها وأفضله الذي ما طابت لأهلها إلا به . انتهى كلام ابن أبي العز رحمه الله .

قال الإمام أحمد ابن تيمية مِدرهُ السنة الأقدر وقامع البدعة الأقهر رحمه الله في رده على هذه الأقوال المخالفة لمعتقد أهل السنة وذلك أثناء كلامه عن قوله ﴿ نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل:١٠٢] قال: وفي قوله منزل من ربك دلالة على أمور:

منها: بطلان قول من يقول إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم فإن السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال إن القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة جهمياً ، فإن جهماً أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات وبالغ في نفي ذلك فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه وإن كان الجعد بن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك .

فإن الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك في الإسلام .... وجهم يقول أن الله تعالى لا يتكلم، أو يقول أنه يتكلم بطريق المجاز، وأما المعتزلة فيقولون أنه يتكلم حقيقة لكن قولهم في المعنى هو قول جهم، ... والمقصود أن قوله ﴿ منزل من ربك ﴾ فيه بيان أنه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات ولهذا قال السلف: (منه بدأ) أي هو الذي تكلم به لم يبتدأ من غيره كما قالت الخلقية [1].

ومنها: أن قوله ﴿منزل من ربك﴾ فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي ﷺ من العقل الفعال أو غيره كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة وهذا القول أعظم كفراً وضلالاً من الذي قبله .

ومنها: أن هذه الآية أيضاً تبطل قول من يقول أن القرآن العربي ليس منزلاً من الله بل مخلوق إما في جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون أن القرآن العربي ليس هو كلام الله وإنما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ثم إما أن يكون خلق في بعض الأجسام، الهواء أو غيره أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي أو ألهمه محمد فعبر عنه بالقرآن العربي أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره فهذه الأقوال التي تقدمت هي تفريع على هذا القول فإن هذا القرآن العربي لا بد له من متكلم تكلم به أولاً قبل أن يصل إلينا، وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن العربي وكذلك التوراة العبرية ويفارقه من وجهين:

أحدهما: أن أولئك يقولون أن المخلوق كلام الله وهؤلاء يقولون أنه ليس كلام الله لكن يسمى كلام الله مجازاً وهذا قول أئمتهم وجمهورهم، وقالت طائفة من متأخريهم بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي، لكن هذا ينقض أصلهم في إبطال قيام الكلام بغير المتكلم به، وهم مع هذا لا يقولون أن المخلوق كلام الله حقيقة كما تقوله المعتزلة، مع قولهم أنه كلامه حقيقة، بل يجعلون القرآن العربي كلاماً لغير الله وهو كلام حقيقة، وهذا شر من قول المعتزلة، وهذا حقيقة قول الجهمية، ومن هذا الوجه فقول المعتزلة أقرب، وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة، لكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء، وإنما ينازعونهم في اللفظ .

---

[1] أي الذين يقولون: إن القرآن مخلوق وهم المعتزلة ومن وافقهم .

الثاني: أن هؤلاء يقولون لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته، والخلقية يقولون لا يقوم بذاته كلام، ومن هذا الوجه فالكلابية خير من الخلقية في الظاهر، لكن جمهور الناس يقولون: إن أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا له كلاماً حقيقة غير المخلوق فإنهم يقولون أنه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر فإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً...

وقال جمهور العقلاء نحن إذا عربنا التوراة والإنجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن، بل معاني هذا ليست معاني هذا، ومعاني هذا ليست معاني هذا، وكذلك معنى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ليس هو معنى ﴿تبت يدا أبى لهب ﴾ ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين، وقالوا إذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الإلزام ليس لهم عنه جواب عقلي...[1].

والمقصود هنا أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول كما تبين بطلان غيره، فإن قوله ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ يقتضي نزول القرآن من ربه، والقرآن: اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه، بدليل قوله: ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة، وأيضاً فضمير المفعول في قوله ﴿نزله﴾ عائد على ما في قوله ﴿والله أعلم بما ينزل ﴾ فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس، فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي، لزم أن يكون نزله من الله، فلا يكون شيء منه نزله من عينٍ من الأعيان المخلوقة، ولا نزّله من نفسه[2]. أي جبريل .

وقال الإمام الفقيه الموفق ابن قدامة الحنبلي صاحب المغني وهو يرد على أصحاب الكلام النفسي: وقال: ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ [هود:١٣] والتحدي إنما وقع بالإتيان بمثل هذا الكتاب بغير إشكال، لأن ما في النفس لا يدرى ما هو ولا يسمى سوراً ولا حديثاً فلا يجوز أن يقال فأتوا بحديث مثل ما في نفس الباري، ولأن المشركين إنما زعموا أن النبي ﷺ افترى هذا القرآن أو تقوله، فرد الله عليهم دعواهم فتحداهم بالإتيان بمثل ما زعموا أنه مفترى ومتقول دون غيره[3].اهـ .

---

(١) منهم الآمدي كما ذكر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/١٢٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/١١٨-١٢٣) وانظر: (٩/٢٨٣) .

(٣) البرهان في بيان القرآن، نقلاً عن لوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السُنية في شرح منظومة ابن أبي داود الحائية، للسفاريني (١/٢١٢) .

وقال أيضاً: وأجمعوا على أن في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ولا تعلق لذلك بالكلام النفسي...[١]. اهـ .

قال الإمام ابن تيمية[٢]: والبدعة كلما فُرّع عليها وذكر لوازمها زادت قبحاً وشناعةً وأفضت بصاحبها إلى أن يخالف ما يعلم بالاضطرار من العقل والدين ... وهذا كما أن أقواماً ابتدعوا أن حروف القرآن ليست من كلام الله، وأن كلام الله إنما هو معنى قائم بذاته هو الأمر والنهي والخبر، وهذا الكلام فاسد بالعقل الصريح والنقل الصحيح، فإن المعنى الواحد لا يكون هو الأمر بكل مأمور والخبر عن كل مخبر ولا يكون معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحداً، وهم يقولون: إذا عبر عن ذلك الكلام بالعربية صار قرآناً، وإذا عبر عنه بالعبرية، صار توراةً، وهذا غلط فإن التوراة يعبر عنها بالعربية، ومعانيها ليست هي معاني القرآن، و القرآن يعبر عنه بالعبرية، وليست معانيه هي معاني التوراة .

وهذا القول أول من أحدثه ابن كلاب ولكنه هو ومن اتبعه عليه كالأشعري[٣]وغيره يقولون مع ذلك: إن القرآن محفوظ بالقلوب حقيقة، متلو بالألسن حقيقة، مكتوب في المصاحف حقيقة .

ومنهم من يمثل ذلك[٤]: بأنه: محفوظ بالقلوب كما أن الله معلوم بالقلوب، ومتلو بالألسن، كما أن الله مذكور بالألسن، ومكتوب في المصاحف، كما أن الله مكتوب في المصاحف، وهذا غلط في تحقيق مذهب ابن كلاب والأشعري، فإن القرآن عندهم معنى عبارة عنه . اهـ .

ثم بين رحمه الله أن هذا القول جرّ بعض أتباعهم بأن قالوا: إن القرآن معنى قائم بذات الله فقط وأن الحروف ليست من كلام الله، بل خلقها الله في الهواء، أو صنفها جبريل،

---

[١] المصدر نفسه (٢١٧/١) .

[٢] مجموع الفتاوى (٤٢٣/٨ ـ ٤٢٥) .

[٣] ثبت عن الأشعري رحمه الله أنه رجع عن معتقد ابن كلاب إلى قول الإمام أحمد وأهل الحديث وهذا ما سطره في كتابه الإبانة، ومعتقد أهل الحديث من كتابه مقالات الإسلاميين، وهذا ظاهر جداً حيث عقد فصلاً لمعتقد أهل الحديث وأيده فقال (٢٩٧) (وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب..) وكان قد عقد فصلاً في عقيدة ابن كلاب (١٦٩) و(٢٩٨) ولم يذكر تأييده له كما ذكر عن أهل الحديث ودل أن معتقد ابن كلاب غير معتقد أهل السنة والحديث، وإلا لما فرّقهما الأشعري، ولما أيد أحدهما دون الآخر.

[٤] انظر: أصول الدين لجمال الغزنوي (١٠٤) .

أو محمد، فضموا إلى ذلك أن المصحف ليس فيه إلا مداد وورق، وأعرضوا عما قاله سلفهم من أن ذلك دليل على كلام الله فيجب احترامه، لما رأوا أن مجرد كونه دليلاً لا يوجب الاحترام، كالدليل على الخالق المتكلم بالكلام، فإن الموجودات كلها أدلة عليه ولا يجب احترامها، فصار هؤلاء يمتهنون المصحف حتى يدوسوه بأرجلهم، ومنهم من يكتب أسماء الله بالعَذِرة إسقاطاً لحرمة ما كتب في المصاحف والورق من أسماء الله وآياته، وقد اتفق المسلمون على أن من استخف بالمصحف مثل أن يلقيه في الحش أو يركضه برجله إهانة له أنه كافر مباح الدم، فالبدع تكون في أولها شبراً ثم تكثر في الأتباع حتى تصير أذرعاً وأميالاً وفراسخ . اهـ .

المبحث الثالث: النبوة:

المسألة الأولى : تعريف النبي والرسول لغة:

يقال: النبوة والنباوة، أي الارتفاع عن الأرض، أو أن اشتقاقه من نبأ وأنبأ بمعنى أخبر، كما في قوله تعالى ﴿ عم يتساءلون ۞عن النبأ العظيم ﴾[1] [النبأ : ١-٢] .

ولفظ الإنباء: يتضمن الإعلام والإخبار [2].

والنبي: فعيل، وفعيل قد يكون بمعنى فاعل، أي منبئ، وبمعنى مفعول، أي: منبأ، وهما هنا متلازمان فالنبي الذي ينبئ بما أنبأه الله به والنبي الذي نبأه الله وهو منبأ بما أنبأه الله به[3].

والرسول لغة: مشتق من الإرسال، ومعناه البعث والتوجيه، والإطلاق والامتداد، يقال: أرسلت فلاناً في رسالة: أي بعثته، فهو مرسل ورسول[4].

المسألة الثانية: الفرق بين النبي والرسول:

اشتهر على ألسنة أهل العلم أن النبي هو من أوحي إليه وحي، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه[5]، ولعل الراجح أن بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً، فالنبوة داخلة في الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من

---

[1] انظر: لسان العرب، مادة (نبأ)(١/١٦٢-١٦٣) ومادة (نبا)(١٥/٣٠١) .

[2] النبوات لابن تيمية (٨٧٨) وانظر (٨٨١) وما بعدها ففيها بحث لغوي شيق .

[3] المصدر نفسه (٨٧٣) وانظر: (٦٨٧) .

[4] انظر لسان العرب (رسل) (١١/٢٨٣- ٢٨٤) والقاموس المحيط (١٣٠٠) .

[5] انظر: شرح الطحاوية (١٥٨) ولوامع الأنوار (١/٤٩) .

جهة أهلها فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً. فالأنبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة فإنها لا تتناول الرسالة[١].

قال ابن تيمية: فالنبي: هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته ﴾[الحج: ٥٢] وقوله: ﴿ من رسول ولا نبي ﴾ فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح عليه السلام، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم عليه السلام كان نبياً مكلماً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام)[٢].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي[٣]: (واستظهر بعضهم: أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة، كما بيّنه تعالى: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾ [المائدة: ٤٤]) .

المسألة الثالثة: ما حقيقة النبوة ؟

أ) **حقيقة النبوة عند الجهمية والأشاعرة:** النبوة عند الجهمية والأشاعرة مجرد إعلام النبي بما أوحاه الله إليه، والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه الله إليه، والنبوة عندهم ليست صفة ثبوتية، ولا مستلزمة لصفة يختص بها، بل هي من الصفات الإضافية، فهي ليست صفة راجعة إلى نفس النبي، ولا معنى يعود إلى ذات من ذاتيات النبي ولا إلى عرض من أعراضه استحقها بكسبه وعلمه.. بل إلى مجرد تعلق خطاب الوحي بالنبي، كما يقولون مثل ذلك في الأحكام الشرعية فهي عندهم ليست إلا مجرد خطاب الله المتعلق

---

[١] انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (١٠/٧) مجموع الفتاوى .

[٢] النبوات (٧١٤/٢-٧١٥) .

[٣] أضواء البيان (٧٣٥/٥) .

بأفعال المكلفين من غير أن يكون للفعل نفسه صفة اقتضت تخصيصه بالحكم كذلك يقول هؤلاء ليس للنبي في نفسه صفة اقتضت تخصيصه بالنبوة[١].

ب) وذهب أهل السنة والجماعة إلى أن النبوة اصطفاء واختيار من الله تعالى لبعض عباده، قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾ [طه: ١٣] وقال: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقال: ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ [طه:١٢٢] وقال: ﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [البقرة: ١٠٥] وقال: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ [القصص: ٦٨]، والمراد بالاختيار هنا الاجتباء والاصطفاء، وهو اختيار من الخلق بعد خلقهم، وأصح القولين أن الوقف التام على قوله: ﴿ويختار﴾ ويكون ما لهم الخيرة نفياً، أي ليس هذا الاختيار لهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحالّ رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه[٢].

ومن ذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام، واختياره الرسل منهم، واختياره أولي العزم منهم، وهم خمسة، واختار منهم الخليلين: إبراهيم ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم ومنازلهم في الجنة ومقاماتهم في الموقف..

قال ابن القيم رحمه الله وهو يتكلم عن التفضيل والاختيار: وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وطهر بيتي ﴾ [الحج : ٢٦] فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته، كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضته من ذلك، وكذلك إضافته عبادَه المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم، فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء، ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلاً آخر، وتخصيصاً وجلالةً زائداً على ما كان له قبل الإضافة، ولم يوفق لفهم هذا المعنى من

---

[١] انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (٤٦٢) وغاية المرام في علم الكلام للآمدي (٣١٧) ومنهاج السنة لابن تيمية (٢/٤١٤) وشرح الأصفهانية له (١٦٠).

[٢] زاد المعاد (١/٣٩)، وانظر بعدها فصلاً شيقاً في الاختيار والتفضيل.

سوَّى بين الأعيان والأفعال، والأزمان والأماكن، وزعم أنه لا مزية لشيء منها على شيء، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح، وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجهاً قد ذُكِرت في غير هذا الموضع، ويكفي تصور هذا المذهب الباطل في فساده فإن مذهباً يقتضي أن تكون ذوات الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة، وإنما التفضيل بأمر لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها، وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية البتة، وإنما هو لما يقع فيها من الأعمال الصالحة، فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام ومنى وعرفة والمشاعر على أي بقعة سميتها من الأرض، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود إليها ولا إلى وصف قائم بها، والله سبحانه وتعالى قد رد هذا القول الباطل بقوله تعالى: ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ قال الله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : ١٢٤] أي: ليس كل أحد أهلاً ولا صالحاً لتحمل رسالته، بل لها محالّ مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصح إلا لها، والله أعلم بهذه المحالّ منكم، ولو كانت الذوات متساوية كما قال هؤلاء لم يكن في ذلك رد عليهم وكذلك قوله تعالى: ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [الأنعام : ٥٣] أي: هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته فيختصه بفضله ويمنّ عليه، ممن لا يشكره، فليس كل محل يصلح لشكره، واحتمال منته، والتخصيص بكرامته، فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها، مشتملة على صفات وأمور قائمة بها ليس لغيرها، ولأجلها اصطفاها الله، وهو سبحانه الذي فضلها بتلك الصفات، وخصها بالاختيار، فهذا خلقه وهذا اختياره ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ [القصص: ٦٧] وما أبين بطلان رأي يقضي بأن مكان البيت الحرام مساوٍ لسائر الأمكنة، وذات الحجر الأسود مساوية لسائر حجارة الأرض، وذات رسول الله ﷺ مساوية لذات غيره، وإنما التفضيل في ذلك بأمور خارجة عن الذات والصفات القائمة بها، وهذه الأقاويل وأمثالها من الجنايات التي جناها المتكلمون على الشريعة ونسبوها إليها وهي بريئة منها وليس معهم أكثر من اشتراك الذوات في أمر عام وذلك لا يوجب تساويها في الحقيقة لأن المختلفات قد تشترك في أمر عام مع اختلافها في صفاتها النفسية... ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود المرذول، وإنما قصدنا تصويره، وإلى اللبيب العادل العاقل

التحاكم، ولا يعبأ الله وعباده بغيره شيئاً، والله سبحانه لا يخصص شيئاً ولا يفضله ويرجحه إلا لمعنى يقتضي تخصيصه وتفضيله، نعم هو معطي ذلك المرجح وواهبه فهو الذي خلقه ثم اختاره بعد خلقه وربك يخلق ما يشاء ويختار[١].

جـ) موقف المعتزلة من حقيقة النبوة: وأما المعتزلة فقولهم يقارب قول أهل السنة في ذلك، إلا أنهم بناء على آرائهم العقلية في مسألة التحسين والتقبيح والتعديل والتجويز، أوجبوا على الله سبحانه وتعالى أن يبعث الرسل، وأوجبوا عليه أن يختار، قال ابن تيمية: والمعتزلة يقولون بالاختيار المتضمن لشريعة عقلية ألزموه بها في التعديل والتجويز ونحو ذلك [٢].

وقال: قد يقول من يقول من المعتزلة: إن النبوة جزاء على عمل متقدم، وإن النبي لما قام بواجبات عقلية أكرمه الله تعالى عليها بالنبوة، مع كون النبي متميزاً بصفات خصه الله تعالى بها، وهذا القول موافق في الجملة قول أكثر الناس، وهو أن النبوة والرسالة تتضمن كلام الله سبحانه، الذي ينزل على رسوله ونبيه، وإنه مع ذلك مختص بصفات اختصه الله تعالى بها دون غيره من الأنبياء، وأنه لا يكون النبي والرسول كسائر الناس في العقل والخلق وغير ذلك، بل هو متميز عن الناس بذلك، والنبوة فضل الله يؤتيه من يشاء، لكن مع ذلك، الله أعلم حيث يجعل رسالته[٣].

د) موقف الفلاسفة: تقدم في مسألة الوحي أن الوحي يحصل للشخص إذا اجتمعت فيه خاصيتان: القوة العلمية، وقوة التخييل، فيفيض عليه العقل الفعال، وحتى يكون نبياً لا بد أن يكون له خاصية ثالثة: بحيث تكون له من القوة العملية والنفسانية بحيث يؤثر في العنصريات تأثيراً غريباً ويتصرف في هيولي العالم كما أن العائن له قوة نفسانية يؤثر بها في المعين ويزعمون أن خوارق العادات التي للأنبياء والأولياء هي من هذا النمط[٤].

فمن كان متميزاً في قوته العلمية بحيث يستغني عن التعليم، وشُكِّل في نفسه خطابٌ يسمعه كما يسمع النائم، وشخص يخاطبه كما يخاطب النائم، وفي العملية بحيث يؤثر في العنصريات تأثيراً غريباً كان نبياً عندهم[٥].

---

[١] زاد المعاد (١/ ٥٢ـ٥٤) .

[٢] شرح الأصفهانية (١٦٠) .

[٣] شرح الأصفهانية (١٦٣) .

[٤] انظر: الصفدية (١/٦ـ٧) .

[٥] منهاج السنة (٢/٤١٥ ـ ٤١٦) .

فالنبوة هي كمال للنفس الناطقة، تستعد به لأن تفيض عليها المعارف من العقل الفعال، من غير أن يكون هناك خطاب حقيقي لله تعالى، ولكن كلام الله سبحانه عندهم هو ما يحدث في نفس النبي من أصوات يسمعها في نفسه لا خارجاً عن نفسه[١].

هـ) ذهب غلاة المتصوفة من الاتحادية إلى أن الولي أعلى من النبي، وهذا كفر لا شك فيه، قال ابن عربي الطائي: مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي .

وذلك لأن الولي ـ بزعمهم ـ يأخذ عن الله مباشرة، والنبي يأخذ بواسطة الملك، فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة، وهذا باطل وكذب، فإن الولي لا يأخذ عن الله إلا بواسطة الرسول، وإذا كان محدَّثاً قد ألقي إليه شيء وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسنة [٢].

المسألة الرابعة : دلائل النبوة:

الطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات،... وقرروا ذلك بطرق مضطربة، وقالوا: خوارق الأنبياء يظهر مثلها على يد الساحر والكاهن والصالح، ولا يدل على النبوة لأنه لم يدعها، قالوا: ولو ادعى النبوة أحدٌ من أهل الخوارق مع كذبه لم يكن بدٌ من أن الله يعجزه عنها، فلا يخلقها على يده، أو يقيض له من يعارضه فتبطل حجته، ولأجل عدم تمييز هؤلاء بين المعجزة والسحر، التزم كثير من المتكلمين ـ ومنهم المعتزلة ـ إنكارَ خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك[٣].

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لكن الدليل غير محصور في المعجزات فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة فكيف بدعوى النبوة؟ وما أحسن ما قال حسان ﷺ:

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

---

[١] الأصفهانية (١٦١) .

[٢] انظر حقيقة مذهب الاتحاديين (١٤٦ ـ ١٥٢) وبغية المرتاد (٢٢٨) .

[٣] انظر: شرح الطحاوية (١٥٠) والنبوات لابن تيمية (٤٨٧/١) (٤٨٩/١) وقد استفاض رحمه الله في الرد على هذا القول .

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولا بد أن يفعل أموراً يبين بها صدقه، والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق ضده، بل كل شخصين ادعيا أمراً: أحدهما صادق والآخر كاذب، لا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور ...ولهذا قال تعالى: ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ❖ تنزل على كل أفاك أثيم ❖ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ❖ والشعراء يتبعهم الغاوون ❖ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ❖ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾[الشعراء: ٢٢١ـ ٢٢٦] فالكهان ونحوهم وإن كانوا أحياناً يخبرون بشيء من المغيبات ويكون صدقاً، فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بأنبياء.... فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله، علم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن، والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى في المدعي للصناعات والمقالات، كمن يدعي الفلاحة والنساجة والكتابة وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك . والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب ؟ ...

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار قال لها لما جاءه الوحي: ((إني قد خشيت على نفسي)) فقالت: كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث،وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق . فهو لم يخف من تعمد الكذب فهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء... فذكرت خديجة ما ينفي هذا وهو ما كان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم . وقد عُلم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه .

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوا عليه: إن هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة . وكذلك ورقة بن نوفل لما أخبره النبي ﷺ بما رآه... وكذلك هرقل ملك الروم استدل بأمور عدة على نبوته، ومنها: وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقلتم: لا، فقلت:

قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله تعالى، وبعد أن ذكرها كلها ... وهذه صفة نبي وقد كنت أعلم أن نبياً يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين..[١]. فليس في استدلال خديجة رضي الله عنها ولا النجاشي، ولا هرقل، ولا ورقة ذكر للمعجزة ولا السؤال عنها .

ويذكر ابن تيمية في هذه الاستدلالات مسلكين : الأول مسلك نوعي، فالنبوة كلها من نوع واحد، والثاني: مسلك شخصي، وهو الاستدلال بشخصية النبي على صدقه، ولو خلا ذلك من المعجزات .

قال: المسلك الأول: النوعي هو مما استدل به النجاشي على نبوته فإنه لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوه عليه قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، وكذلك قبله ورقة بن نوفل... قال هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى وإن قومك سيخرجونك ...

والمسلك الثاني: الشخصي استدل به هرقل ملك الروم...[٢] وخديجة رضي الله عنها استدلت على إكرامه وإعزازه .

المبحث الرابع: الإيمان بالكتب المنزلة:

والكلام تحت المبحث في مسألتين:

المسألة الأولى: الإيمان بالكتب السابقة:

لا شك أن الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على رسله ركن ركين من أركان هذا الدين الحنيف، والكفر بواحدٍ من هذه الكتب كفر بالكتب كلها، والأدلة على ذلك كثيرة أشهر من أن تذكر في هذه العجالة، قال تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ..﴾ [البقرة: ٢٨٥]

والإيمان بالكتب يشمل أموراً:

الأول: ـ مجمل ـ وهو أن الله تعالى أنزل على رسله كتباً هداية لأقوامهم .

---

[١] شرح الأصفهانية (١٢٠ وما بعدها) وشرح الطحاوية (١٥٠ وما بعدها) .

[٢] شرح الأصفهانية (١٢٦) .

الثاني: ـ مفصل ـ وهو الإيمان بما سمَّى الله تعالى من كتبه في القرآن الكريم، التوراة والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى .

الثالث: الإيمان بما وصفها الله تعالى بالقرآن وتصديق ما أخبر فيها من أخبار، والإيمان بما جاء فيها من أحكام، كما في قوله تعالى: ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ۞ من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ [آل عمران: ٣ـ ٤] ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور..﴾ الآية [المائدة: ٤٤] وقال سبحانه ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ [المائدة: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ [النساء:١٦٣] .

الرابع: أن الكتب السابقة حرِّفت وبدلت ولم تبقَ كما أنزلها الله تعالى، وذلك لحكمة أرادها الله .

الخامس: أن هذه الكتب منسوخة بالقرآن، وإلا ما جاء في القرآن موافقاً لما في الشرائع السابقة، قال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله..﴾ [المائدة: ٤٨] .

السادس: أن هذه الكتب يصدق بعضها بعضاً، كما تقدم في الآيات السابقة .

المسألة الثانية: بأي لسان نزل الإنجيل؟

اشتهر أن التوراة نزلت بالعبرانية[١] وأن الإنجيل نزل بالسريانية، فهل هذا الأمر متفق عليه، أم أنه حصل فيه خلاف ؟ هذا ما سنبينه هاهنا إن شاء الله تعالى:

جاء في لفظ الحديث عن ورقة أنه كان يكتب الكتاب العِبراني فيكتب من الإنجيل بالعِبرانية ما شاء الله أن يكتب . ووقع في كتاب التعبير من صحيح البخاري العربي، وبالعربية بدل هذين اللفظين، قال النووي: وحاصلهما أنه تمكن من معرفة دين النصارى بحيث أنه صار يتصرف في الإنجيل فيكتب أي موضع شاء منه بالعبرانية إن شاء وبالعربية إن شاء والله اعلم [٢]. قال الكرماني في شرح البخاري معلقاً على كلام النووي: يفهم منه أن الإنجيل ليس عبرانياً وهو المشهور[٣]. اهـ .

---

[١] العبراني: بكسر العين لغة اليهود (الكرماني ٣٨/١) والسرياني ـ بضم السين (تحفة الأحوذي ٤١٢/٧) .

[٢] شرح مسلم (٢٠٣/٢) .

[٣] الكرماني (١/ ٣٨) .

قلت: هذا هو القول الأول، وهو أن الإنجيل ليس عبرانياً، ومن العلماء من جزم بأنه سرياني[١]، وآخرون جعلوه احتمالاً .

قال العيني[٢]: قلت لا نسلم أن الإنجيل كان عبرانياً ولا يفهم من الحديث ذلك والذي يفهم من الحديث أنه كان يعلم الكتابة العبرانية ويكتب من الإنجيل بالعبرانية ولا يلزم من ذلك أن يكون الإنجيل عبرانياً، لأنه يجوز أن يكون سريانياً وكان ورقة ينقل منه باللغة العبرانية، وهذا يدل على علمه بالألسن الثلاثة وتمكنه فيها حيث ينقل السريانية إلى العبرانية . اهـ .

وأما القول الثاني: فهو أن الإنجيل عبراني؛ قال التيمي الأصبهاني: الكلام العبراني هو الذي أنزل الله به جميع الكتب كالتوراة والإنجيل ونحوهما [٣].

وقال الداودي يكتب من الإنجيل الذي هو بالعبرانية بهذا الكتاب العربي فنسبه إلى العبرانية إذ بها كان يتكلم عيسى عليه السلام[٤].

وأما ابن حزم فإنه ينقل الاتفاق على أنه منقول من العبرانية إلى السريانية[٥].

القول الثالث: أن الإنجيل وغيره من الكتب نزلت بالعربية ثم نقلت إلى لغة القوم الذين نزلت فيهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري قال: لم ينزل وحي إلا بالعربية ثم يترجم كل نبي لقومه بلسانهم [٦].

هذا وقد ذكر الآلوسي رحمه الله تعالى: أن اللغات التي كتب بها الإنجيل عدة لغات بناء على أن الإنجيل الموجود الآن ليس هو كلام الله الذي أنزله على عيسى عليه السلام وإنما كتبه عنه أصحاب الأناجيل فنسب كل إنجيل لكاتبه .

---

[١] وقد تقدم ذلك من خلال النقل في مسألة الكلام، وانظر: زاد المسير (١٧٧/٤)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (٤٦٥/١) وقلائد المرجان للكرمي (٢٣٤)، وتحفة الأحوذي (٤١٢/٧) .

[٢] عمدة القاري (٥٤/١) .

[٣] نقله عنه الكرماني (٣٧/١) .

[٤] نقله عنه العيني في عمدة القاري (٥٤/١) .

[٥] انظر الفصل في الملل والنحل (٤٩/١) .

[٦] الدر المنثور (٥/٥) وانظر تفسير ابن كثير (الشعراء آية ١٩٥) .

الأول: إنجيل متى وهو من الاثني عشر الحواريين وإنجيله باللغة السريانية كتبه بأرض فلسطين بعد رفع المسيح إلى السماء بثماني سنين .

والثاني: إنجيل مرقس وهو من السبعين وكتب إنجيله باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد رفع المسيح باثنتي عشرة سنة .

والثالث: إنجيل لوقا وهو من السبعين أيضاً كتب إنجيله باللغة اليونانية بمدينة الإسكندرية بعد ذلك .

والرابع: إنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح كتب إنجيله بمدينة إقسس من بلاد رومية بعد رفع المسيح بثلاثين سنة[١] .

قلت: هذا الخلاف الواقع في اللسان الذي نزل به الإنجيل، ودخول الترجمات عليه، وتدوينه بعد رفع عيسى عليه السلام ليدل على أنه لم يبقَ محفوظاً وإنما نقص منه وزيد فيه، وغيّر وبدل . ولم يبقَ محفوظاً من الكتب التي أنزلها الله تعالى ـ كما أنزلها الله ـ إلا القرآن الكريم العظيم، فالحمد لله على نعمة القرآن والإسلام والإيمان .

المبحث الخامس: الإيمان بالملائكة:

الأصل أن يقدم هذا المبحث نظراً لما ورد في حديث أركان الإيمان، ولكن بما أن هذا المبحث له علاقة بالفلاسفة، فاخترت أن يؤخر، لأن معرفة المراد بالملائكة عند الفلاسفة متوقف على معرفة النبوة عندهم، فإذا اتضح المراد بالنبوة عندهم اتضح المراد بالملائكة .

المسألة الأولى: الإيمان بالملائكة ركن من أكان الإيمان، ويشمل الإيمان بهذا الركن أمرين:

الأول: الإيمان المجمل بالملائكة، وأنهم خلق خلقهم الله واصطفاهم لعبادته .

الثاني: الإيمان المفصل بكل ما جاء في الكتاب وصح الخبر به عن الملائكة، من أسمائهم وأوصافهم، وأعمالهم .

وقوله في الحديث : ((فجاءه الملك وهو في غار حِراء)) وقوله ((فغطني))[٢] الأولى ثم الثانية ثم الثالثة دليل على أن الملك خلقٌ مستقل بذاته، وأنه يتشكل بما أذن الله له، وليس هو مجرد تخيل من النبي ﷺ .

---

[١] انظر روح المعاني (٣/٢٠٦) .

[٢] (فغطني) ضمني وعصرني حتى حبس نفسي ومثله (غتني) .

وأما المراد بالملائكة عند الفلاسفة، فهو ما تقدم من أن النبي لـه من القـوة التخييليـة بحيـث يتخيـل القـوى العقليـة بأشـكال محسوسة، فـالملائكة عبـارة عـن أشـكال نورانيـة يراهـا ويسمعها وذلك في نفسه[١].

قال ابن تيمية عن هذا الأمر عند الفلاسفة: ومن كان متميزاً في قوته العلمية بحيث يستغني عن التعليم، وشُكل في نفسه خطاب يسمعه كما يسمع النائم، وشخص يخاطبه كما يخاطب النائم، وفي العملية بحيث يؤثر في العنصريات تأثيراً غريباً، كان نبياً عندهم، وهم لا يثبتون ملكاً مفضلاً يأتي بالوحي من الله تعالى، ولا ملائكة، بل ولا جناً يخرق الله بهم العادات للأنبياء إلا قوى النفس .

وقول هؤلاء وإن كان شراً من أقوال كفار اليهود والنصارى، وهو أبعد الأقوال عما جاءت به الرسل، فقد وقع فيه كثير من المتأخرين الذين لم يشرق عليهم نور النبوة من المدعين للنظر العقلي والكشف الخيالي الصوفي، وإن كان غاية هؤلاء الأقيسة الفاسدة والشك، وغاية هؤلاء الخيالات الفاسدة والشطح [٢].

وبذلك ينكرون جبرائيل عليه السلام ملك الوحي، ويسمونه بالعقل الفعّال[٣] . كما تقدم ذلك في الوحي .

وأما معتقد أهل السنة والجماعة وجمهور المسلمين أن الملائكة أجسام مخلوقة منفصلة مستقلة تذهب وتجيء وتصعد وتنزل، وتصلي وتسجد وتركع، أعطاها الله من الخواص أموراً كثيرةً لا يستطيع البشر معرفتها [٤].

المسألة الثانية: جبريل ملك الوحي:

من المعروف والمشهور أن جبريل عليه السلام ملك الوحي، وهذا أمر متفق عليه، وقد ورد في الحديث بوصف الناموس، والناموس هو صاحب سرّ الخير والمراد به هاهنا جبريل[٥].

---

[١] انظر: الصفدية لابن تيمية (٦/١) وشرح الأصبهانية له (١٦١) وشرح الطحاوية (٢٩٨) .

[٢] منهاج السنة النبوية (٤١٥ ـ ٤١٦) .

[٣] انظر الصفدية (٢٠١/١ـ ٢٠٢) .

[٤] انظر موسعاً صفات الملائكة ووظائفهم والاستدلال لوجودهم: شرح الطحاوية (٢٩٧، وما بعدها و ٣٨٨ وما بعدها) .

[٥] انظر شرح النووي على مسلم (٢٠٣/٢) .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزل جبريل عليه السلام على كل نبي فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام[١].

قال الإمام أحمد ابن تيمية في قوله[٢]: ﴿ نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾[النحل:١٠٢] بيان لنزول جبريل به من الله فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله: ﴿ من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله﴾[البقرة٩٧] وهو الروح الأمين كما في قوله: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ۞ نزل به الروح الأمين ۞على قلبك لتكون من المنذرين ۞ بلسان عربي مبين﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٥] وفي قوله: ﴿الأمين﴾ دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص منه، فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة كما قال في صفته في الآية الأخرى ﴿ إنه لقول رسول كريم ۞ ذي قوة عند ذي العرش مكين ۞ مطاع ثم أمين﴾ [التكوير:١٩-٢١] .

هذا وقد ورد في الآثار أن إسرافيل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ بعد أن نزل عليه جبريل أول الأمر .

نقل الحافظ ابن حجر[٣]عن تاريخ الإمام أحمد أثراً من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة .

وأخرجه ابن أبي خيثمة من وجه آخر مختصراً عن داود بلفظ: ((بعث لأربعين ووكل به إسرافيل ثلاث سنين ثم وكل به جبريل)).... وقد حكى ابن التين هذه القصة لكن وقع عنده ميكائيل بدل إسرافيل وأنكر الواقدي هذه الرواية المرسلة، وقال: لم يقرن به من الملائكة إلا جبريل انتهى . ولا يخفى ما فيه، فإن المثبت مقدم على النافي إلا إن صحب النافي دليل نفيه فيقدم والله أعلم . انتهى قول الحافظ .

---

[١] تفسير القرطبي (٤٨/٦) .

[٢] مجموع الفتاوى (١١٨/١٢) .

[٣] فتح الباري (١/ ٣٧) .

المبحث السادس: فضائل ورقة وخديجة رضي الله عنهما .

المسألة الأولى: ورقة بن نوفل وفضائله .

أ) اسمه ونسبه: هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي، ابن عم خديجة زوج النبي ﷺ [١].

ب) إسلامه: قال ابن منده: واختلف في إسلامه[٢]، وقال ابن عساكر: ولا أعرف أحداً قال: إنه أسلم[٣].

قال العيني[٤]وظاهر هذا الحديث، وهو قوله فيه: يا ليتني كنت فيها جذعاً وما ذكر بعده من قوله يدل على إسلامه، وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ لما أخبره قال له ورقة بن نوفل : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة .

وقال الحافظ ابن حجر[٥] بعد ذكر حديث الباب: فهذا ظاهر أنه أقرّ بنبوته، ولكنه مات قبل أن يدعو رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام، فيكون مثل بحيرا، وفي إثبات الصحبة له نظر .

قلت: إن الحافظ رحمه الله يفرق بين أمرين، وهما: الحكم بإسلامه أو إيمانه، والحكم بصحبته، فكونه أقر بنبوته قبل أن يدعو الناس إليها، لا يعني أن له صحبةً، ولذلك قال، وفي إثبات الصحبة له نظر .

ويحمل قول ابن منده: اختلف في إسلامه، وكذا قول ابن عساكر لا أعلم أحداً قال إنه أسلم، لأن النبي ﷺ لم يكن دعا أحداً إلى الإسلام، لأنه حينئذ عرف أنه نبيٌّ، ولم ينشب ورقة أن توفي، وذلك بعد أن صدقه، وليس مقصود هؤلاء أنه لم يصدقه .

قال الكرماني: فإن قلت ما قولك في ورقة أيحكم بإيمانه ؟ قلت: لا شك أنه كان مؤمناً بعيسى عليه السلام، وأما الإيمان بنبينا عليه الصلاة والسلام فلم يعلم أن دين عيسى قد نسخ عند وفاته أم لا؟ ولئن ثبت أنه كان منسوخاً في ذلك الوقت فالأصح أن الإيمان التصديق[٦]وهو قد صدقه من غير أن يذكر ما ينافيه . اهـ .

---

[١] الإصابة (١٠/٣٠٤) .

[٢] أسد الغابة (٥/٤٤٧) .

[٣] الإصابة لابن حجر (١٠/٣٠٤) .

[٤] عمدة القاري (١/٦٣) .

[٥] الإصابة (١٠/٣٠٤) .

[٦] قوله: "فالأصح أن الإيمان : التصديق"، غير صحيح فالصواب أن التصديق جزء من الإيمان، نعم الإيمان هو التصديق في ذلك الوقت فقط لأنه لم يكن هناك أعمال وشرائع .

قلت: ولو لم يعلم أنه منسوخ، لأنه لم يكن مكلفاً بذلك أول الأمر، فإن النبي ﷺ كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء[١]، فكيف يكلف ورقة بأمر لم يكلف به النبي ﷺ، بادئ الأمر، وورقة توفي في فترة الوحي، فلم يؤمر بشيء، ولم يكن ثمة أحكام وشرائع، وبقي ورقة على تصديقه، فصدّقَهُ وتمنى أن يكون مؤازراً وناصراً للنبي ﷺ .

قلت: مما يؤيد أنه أسلم، ما جاء في زيادات المغازي من رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق، قال يونس بن بكير عن يونس بن عمرو وهو ابن أبي إسحاق السبيعي عن أبيه عن جده عن أبي ميسرة واسمه عمرو بن شرحبيل وهو من كبار التابعين أن رسول الله ﷺ قال لخديجة .... فقال له ورقة أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى وأنك نبي مرسل وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا وإن يدركني ذلك لأجاهدنّ معك فلما توفي قال رسول الله ﷺ: ((لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني)) . وقد أخرجه البيهقي في الدلائل من هذا الوجه وقال هذا منقطع[٢].

قلت: ولعل مأخذ الذين قالوا لم يسلم ما أخرجه محمد بن عائذ في المغازي[٣] من طريق عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة ابتداء الوحي وفيها قصة خديجة مع ورقة بنحو حديث عائشة وفي آخرها لئن كان هو ثم أظهر دعاءه وأنا حي لأبلين الله من نفسي في طاعة رسوله، وحسن مؤازرته، فمات ورقة على نصرانيته .

قال الحافظ: كذا قال، لكن عثمان ضعيف .

قلت: وتأويل هذا ظاهر وهو أنه لم يظهر أمر النبي ﷺ ولم يدعُ الناس إلى الإيمان . وهذا المذكور في الحديث ما هو إلا تعبير من الراوي .

جـ) **صحبته:** وبناء على ما تقدم من أنه إن جزم له بأنه تبع النبي ﷺ بعد النبوة فهو صحابي، وإن أقر بها قبل الدعوة فلا يكون كذلك .

قلت: أورد الحافظ ابن حجر رحمه الله أثراً مرسلاً أخرجه الزبير بن بكار، أن ورقة كان يمر على بلال ويصبره، وهذا يدل على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبي ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم بلال، قال الحافظ عن هذا الأثر: مرسل جيد[٤].

---

[١] البخاري (٣٥٥٨) في كتاب المناقب (باب صفة النبي ﷺ) ومسلم (٢٣٣٦) في كتاب الفضائل، (باب في سدل النبي ﷺ شعره وفرقه) .

[٢] الإصابة (١٠/٣٠٤-٣٠٥) .

[٣] الإصابة لابن حجر (١٠/٣٠٥ - ٣٠٦) .

[٤] الإصابة (١٠/٣٠٥) .

فممن ذكره في الصحابة الطبري، وابن منده، وأبو نعيم، والبغوي، وابن قانع، وابن السكن، وابن الأثير وغيرهم .

وإذا اعتبرناه من الصحابة فإنه يأخذ الرقم الأول في الإيمان، ولذلك عده بعض العلماء أو ل من آمن .

قال الزين العراقي: ينبغي أن يقال إنه أول من آمن من الرجال لأن الوحي نزل في حياته فآمن به وصدقه وذكره ابن منده في الصحابة ...[١].

وقال حافظ الحكمي في المعارج: وكفل النبي ﷺ علياً ﷺ وهو صغير فلما بعث آمن به وهو ابن ثمان سنين وهو أول من آمن من الصبيان كما أن أبا بكر أول من آمن به من الرجال وخديجة رضي الله عنها أول من آمن به من النساء وورقة بن نوفل ﷺ أول من آمن من الشيوخ وزيد بن حارثة ﷺ أول من آمن به من الموالي وبلال ﷺ أول من آمن به من الأرقاء ﷺ ورضي عنهم أجمعين[٢].

د) فضائله: قال الزبير كان ورقة قد كره عبادة الأوثان وطلب الدين في الآفاق وقرأ الكتب[٣].

وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى ولم يبدل ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشارة به إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل[٤].

وقد وردت عدة فضائل لورقة، أقتصر فيها على أمثلها :

١) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((لا تسبوا ورقة بن نوفل فإني قد رأيت له جنة أو جنتين))[٥].

٢) وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال: ((يبعث يوم القيامة أمة وحده)) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح[٦].

٣) روى الترمذي من حديث عثمان بن عبد الرحمن عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: سئل رسول الله ﷺ عن ورقة فقالت له خديجة: إنه كان صدقك ولكنه مات قبل أن تظهر . فقال النبي ﷺ: ((**رأيته في المنام وعليه ثياب بيض ولو كان**

---

[١] التقييد والإيضاح (٣١٢) وفيض القدير (٥١٨/٣) .

[٢] معارج القبول: (١١٧١/٣ـ١١٧٢) .

[٣] الإصابة (٣٠٦/١٠) .

[٤] فتح الباري (٣٥/١) .

[٥] رواه الحاكم (٦٦٦/٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٢٠) وفي صحيح السيرة (٩٤) وهذا إسناد جيد وروي مرسلاً وهو أشبه .

[٦] المعجم الكبير (٢٤ / ٨٢) ومجمع الزوائد (٦٩٢/٩) .

من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك)) ثم قال: هذا حديث غريب، وعثمان بن عبد الرحمن ليس عند أهل الحديث بالقوي[١].

وأخرجه أحمد من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن خديجة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ عن ورقة بن نوفل فقال: ((**قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض**))[٢].

٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سئل النبي ﷺ عن عمه أبي طالب: هل تنفعه نبوتك ؟ قال: ((نعم أخرجته من غمرات جهنم إلى ضحضاح منها)) . وسئل عن خديجة رضي الله عنها لأنها ماتت قبل الفرائض وأحكام القرآن فقال: ((أبصرتها على نهر من أنهار الجنة في بيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب)) وسئل عن ورقة بن نوفل فقال: ((أبصرته في بطنان الجنة عليه سندس)) . وسئل عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال: ((يبعث يوم القيامة أمة وحده بيني وبين عيسى عليه السلام))[٣].

المسألة الثانية: فضيلة خديجة رضي الله عنها.

تكاثرت فضائل خديجة رضي الله عنها، وهي المبشرة بالجنة ببيت لا صخب فيه ولا نصب، وهي بالاتفاق أول من آمن من النساء[٤].

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: ((**إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد**))[٥].

وفي رواية عنها رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها، قالت: وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمره ربه عز وجل، أو جبريل عليه السلام أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب[٦]. وفي لفظ للحاكم: ما حسدت..[٧].

---

[١] سنن الترمذي رقم (٢٢٨٨) وضعفه الألباني .

[٢] ذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية لابن كثير (٩٣) .

[٣] رواه أبو يعلى وفيه مجالد وهذا مما مدح من حديث مجالد وبقية رجاله رجال الصحيح.مجمع الزوائد (٦٩٢/٩) وذكره الألباني في صحيح السيرة (٩٤) وقال: إسناده حسن ولبعضه شواهد في (الصحيح) . والله أعلم .

[٤] انظر : العيني على البخاري (٦٣/١)

[٥] البخاري (٣٨١٨) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها)، ومسلم (٢٤٣٥) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .

[٦] البخاري (٣٨١٥) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) .

[٧] المستدرك (٢٠٥/٣) .

عن علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ قال: (خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة)[١].
وفي رواية مسلم: قال أبو كريب: وأشار وكيع إلى السماء والأرض .

عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ! هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب [٢].

وقد وردت البشارة لها بهذا البيت من حديث عائشة رضي الله عنها ـ وقد تقدم ـ وأبي هريرة ﷺ ـ وهو هذا ـ وحديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما[٣]، وابن أبي أوفى ﷺ[٤]. والإشارة تغني عن سرد الألفاظ .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: ((اللهم هالة)) . قالت: فغرت، فقلت ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيراً منها[٥].

هذا وأسأل الله تعالى في نهاية هذا البحث أن أكون قد وفيت ما بحثته حقه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون هذا العمل في ميزان حسناتي يوم القيامة .

ولا بد أن أشير في نهاية هذا البحث أن هناك مباحث أخرى تتعلق بهذا الحديث أعرضت عنها خشية التطويل أكثر، فلعل الله تعالى أن ييسر كتابتها، منها مبحث في التوكل والأخذ بالأسباب وذلك من (التزود)، ومنها: حكم أهل الفترة، ومنها حكم الاختلاء في الكهوف والجبال، ومنها حكم التعبد في غار حراء اليوم، وغيرها ... فأسأل الله تعالى أن يعينني على كتابتها على الوجه الذي يرضيه، إنه سميع مجيب الدعاء. وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم .

---

[١] البخاري (٣٨١٥) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) . ومسلم (٢٤٣٠) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .

[٢] البخاري (٣٨٢٠) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) . ومسلم (٢٤٣٢) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .

[٣] رواه أحمد (٢٠٥/١) مؤسسة قرطبة، والحاكم (٢٠٤.٢٠٣/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

[٤] البخاري (٣٨١٩) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) . ومسلم (٢٤٣٣) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .

[٥] البخاري (٣٨٢١) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) . ومسلم (٢٤٣٧) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .



البكاء من خشية الله

فضيلة الشيخ عبد الهادي بن حسن وهبي❖

إنَّ الحمدَ للّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ باللّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللّهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللّهُ، وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمَّا بعدُ .. فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللّه، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأُمور محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

استوحشَ النَّاسُ من الذنوبِ، وقستِ القلوبُ، فمنعتِ العيونُ دموعَها وبكاءَها. وحُرِمَت القلوبُ حلاوةَ الإيمانِ إلاَّ من رحمَ اللّهُ، وقليلٌ ما هم. و هذا مؤذن بخلل خطير، ومنذر بشرٍ وبيل.

ذكر الحافظ ابن كثيرٍ رحمه اللّه في ترجمة أبي سليمان الداراني في البداية والنهاية[1] أنه قال: **لكلِّ شيءٍ علَمٌ وَعَلَمُ الخذلانِ تركُ البكاءِ من خشيةِ اللّه**.

فإذا خذلَ اللّه العبدَ سلبهُ هذه الخصلةَ المباركة، وإذا خذلهُ قسا قلبهُ، ومعلومٌ أنَّ القلبَ إذا قسا قَحِطَتِ العينُ وجفَّ الدمعُ فيها، فلا تنهمرُ لذكرٍ ولا لخشيةٍ، ولا لإنابةٍ وتضرُّعٍ. وما كان كذلك فهو مخذولٌ.

الحديث عن البكاء من خشية اللّه، حديث عزيز وغريب، عزيز أوشك أن لا يوجد، وغريب كاد أن لا يعرف. فلعلَّ العينَ أن تدمعَ، ولعلَّ القلبَ أن يرق ويخشع. **فهناك تتنزل الرحمات .. وتكتب الحسنات .. وترفع الدرجات!**

❖ داعية إسلامي، خريج جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، كلية أصول الدين قسم السنة، مدير عام معهد الوقف الإسلامي في بيروت التابع لجمعية السراج المنير الإسلامية له عدة مؤلفات، منها: (في ظلال المحبة، الكلمات الحسان في بيان علو الرحمن، الحصن الحصين من الشيطان الرجيم، وغيرها ...).

[1] (٢٦٧/١٠)[طبعة دار أم القرى ـ القاهرة].

فضل البكاء من خشية الله

أ- البكاء من خشية الله سبب للاستظلال بظل العرش:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظله** - وذكر من بينهم -: **ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**))[١].

وذكر الله خالياً يكونُ أقربَ للخشوعِ، وأجلبَ للدموعِ، وأبعدَ عن الرياءِ، وأصفى للنفسِ، ولا يكونُ فيهِ التفاتٌ إلاَّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويكونُ البكاءُ حينئذٍ من خشيةِ اللهِ وخوفهِ.

ذلك بأنَّ الخلوة مدعاة إلى قسوة القلب، والجرأة على المعصية، فإذا ما جاهد الإنسان نفسه فيها، واستشعر عظمة الله فاضت عيناه، فاستحق أن يكون تحت ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

((**ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**)): هذا الذاكرُ مستظلٌّ بظلِّ العرشِ يوم الحرِّ الأكبرِ، والنَّاسُ في حرِّ الشمسِ قد صهرتهم في الموقفِ.

فهلاَّ وقفتَ يوماً لوحدك وخلوتَ بالله لا يعلمُ بك إلاَّ الله، فتذكرتَ عظمةَ الله وقدرتَهُ ومنَّةَ الله عليكَ ونعمتَهُ، وتذكرَّتَ تقصيركَ وكثرةَ ذنوبك فخفقَ القلبُ واقشعر البدنُ وسالتِ الدمعةُ على الخدينِ، فربما كنتَ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

هيا بنا إلى البكاءِ والدموعِ، لعلَّنا نستظلُّ بظلِّ العرشِ يومَ القيامة، ذلك اليومُ الذي يعْرَقُ النَّاسُ فيه إلى آذانِهم!!!

عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((**يعرق الناسُ يوم القيامة حتى يذهبَ عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويُلجِمُهم حتى يبلغَ آذانَهُم**))[٢].

وعن المقداد بن الأسود ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((**فيكون الناسُ على قدر أعمالهم في العرق. فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقويهِ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً**))[٣].

إنَّ الإنسانَ في فصل الصيف يعملُ جاهداً على أن يُذهِبَ الحرَّ بوسائل التبريد المختلفة. فكيفَ لا يعملُ على أن يقيَ نفسَهُ من ذلك الحرِّ الرهيبِ والعرقِ الكثير الذي يبلغُ من الإنسان على قدر عمله.

---

[١] رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

[٢] رواه البخاري (٦٥٣٢)، ومسلم (٢٨٦٣).

[٣] رواه مسلم (٢٨٦٤).

ب ـ البكاء من خشية الله من أحب الأعمال إلى الله .

عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ليسَ شيءٌ أحبَّ إلى الله من قطرتينِ وأثرينِ: قطرةٌ من دموعٍ في خشية الله، وقطرةُ دمٍ تُهراقُ في سبيل الله**)) وأما الأثرانِ: **فأثرٌ في سبيل الله، وأثرٌ في فريضةٍ من فرائض الله**))[١].

دموع الخائفين أحبُّ الدموع إلى الله تعالى، فهي تطفىءُ جمرَ الذنوبِ وتحيي روحَ القلوبِ، وتوصلكَ إلى المطلوبِ فابكِ في خلواتكَ على ذنوبكَ وآثامكَ.

ج ـ البكاء من خشية الله سبب للاستظلال بظل شجرة طوبى:

عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**طوبى لمن مَلَكَ لسانَهُ، ووسِعَهُ بيتُهُ، وبكى على خطيئته**))[٢].

فطوبى لمن ناحَ يوماً على تفريطهِ، وبكى خوفاً لما قد جنى منْ خطاياه، فيقضي عمرهُ مستغفراً باكياً؛ بدمعٍ ساكبٍ هفواته؛ نادماً على ما كان من عصيانه؛ يرجو رحمةَ ربِّه، ويخشى عذابهُ، مستكثراً منَ الحسنات، ليكفِّرَ بها سيئاته، فيفوز برحمة الله وجنتهِ ورضوانهِ .

فطوبى لهُ بالثوابِ الجزيل، والفوزِ الكبير، والنَّعيم المقيم، والعيشِ السليمِ، ومن جملة ذلك شجرة طوبى كما جاء عن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ: عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال لهُ رجلٌ: يا رسول الله، ما طوبى؟ قال: ((**شجرةٌ في الجنة مسيرةَ مائة سنة، ثيابُ أهلِ الجنَّةِ تخرجُ من أكمامها**))[٣].

هل تستوي عينٌ بكت من خشية الله، على الذنوب الماضية، وعينٌ باتت ساهرة على الأفلام الهابطة؟ كلا والله لا يستويان، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار .

هنيئاً لمن أسعفته الدمعات ... قبل يوم الحسرات، وهنيئاً لمن تعجل البكاء ... قبل حسرات يوم اللقاء .

---

[١] رواه الترمذي (١٦٦٩)، وحسنه الألباني رحمه الله في "صحيح سنن الترمذي" (٢٤٢/٢).

[٢] رواه الطبراني في "الأوسط" (٢٣٤٠)، و"الصغير" (٢١٢). وحسنه الألباني رحمه الله في "صحيح الترغيب والترهيب" (٢٧٤٠) .

[٣] رواه ابن حبان (٧٤١٣) وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في "صحيح موارد الظمآن" (٢٢٢٣).

د ـ البكاء من خشية الله سبب للنجاة:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ما النجاةُ؟قال: ((أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك))[1].

كانَ همُّ القومِ طلبَ النجاة . فليكن فهمنا للنجاة: أن تُزحزَحَ عن النَّار وندخل الجنة .

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

ولله درُّ القائلِ:

ليس السعيد الذي دنياه تسعده — إنَّ السعيد الذي ينجو من النَّار

فهيا يا صاحبَ الخطايا أين الدموعُ الجارية ؟؟ ويا أسير المعاصي ابكِ من الذنوب الماضية ؟؟

من كان يخشى الله جل جلاله — فليكثر العبرات في الخلوات
لعلَّه بعد التذكر والبكا — بدلّت له العبراتُ بالحسنات
وتخففُ الأوزارُ عن منشوره — يومَ الحسابِ وموقفِ الحسراتِ

فالواجبُ على كلِّ مسلمٍ علمَ من نفسهِ ذنباً أن يكثرَ البكاءَ عليه عساه يمحوه من كتابهِ مولاهُ، ويتفضل عليه ويغفر له ما قد جناه، فهو المنانُ الكريمُ، المتفضِّل العظيم .

فهل لك أن تمحوَ الذنوبَ بعبرةٍ — وتبكي عليها حسرةً وتندُّما

فلنبكِ على ما أذنبنا في الشهور والأعوام وفي الساعات والأيام، من الخطايا والإجرام، وما فرطنا فيه من أداء حقوقِ الملك العلام .

ومن أعظم المصائب للرجل أن يعلم من نفسه تقصيراً ، بل وتفريطاً ، ثمَّ لا يبكي ولا يبالي . وحاله كما قال القائلُ:

وتضحكُ دائباً ظهراً لبطنٍ — تذكرُ ما عملتَ فلا تتوبُ

هـ ـ البكاء من خشية الله من أسباب التحريم على النار.

عَن أَبِي هُرَيرَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: ((لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِن خَشيَةِ الله حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرعِ، وَلاَ يَجتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله وَدُخَانُ جَهَنَّمَ))[2].

قوله: ((لا يلج)) من الولوجِ، أي: لا يدخل .

---

[1] رواه الترمذي (٢٤٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٥٦٧/٢) .

[2] رواه الترمذي (١٦٣٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٣٣٣) .

قوله: ((**حتَّى يعودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ**)) هذا منْ بابِ التعليقِ بالمحالِ، كقوله تعالى: ﴿ **حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط** ﴾ [الأعراف: ٤٠]. أي لن يعودَ اللبن أبداً في الضرع - أي الثدي - .

هذا والله شأنٌ عظيمٌ وخطبٌ جسيمٌ فإذا جرت الدموع، وخشعت القلوب، محيت الذنوب، وبلغت المنى والمرغوب، ويسَّر حسابَكَ علاَّمُ الغيوب .

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعتُ رَسول الله ﷺ يَقُولُ: ((**عَينَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَينٌ بَكَت مِن خَشيَةِ الله، وَعَينٌ بَاتَت تَحرُسُ فِي سَبِيلِ الله**))[1].

ولله دَرُّ القائل:

فعينٌ بكت من خشيةِ الله حُرِّمت
عَلَى النَّارِ فِي نصِّ الحديثِ المُسَدَّدِ

السبيل إلى البكاء من خشية الله

١- ذكر الموت:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**أكثروا ذكرَ هاذِمِ اللذاتِ**)) يعني: الموتَ[2].

واللذات هي التي تحولُ دونَ دمعِ العينِ وحُزنِ القلبِ، فأكثرْ من ذكرِ الموتِ؛ مستشعراً ما بعدَهُ من أهوالٍ، متخوِّفاً سوءَ المصيرِ، لتحظى بالبكاءِ من خشيةِ الله، وإنَّهُ ليسيرٌ على منْ يسَّره الله عليه .

وعنِ ابن عمرَ رضي الله عنهما، أنَّهُ قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ فجاءَهُ رجلٌ من الأنصار. فسلَّمَ على النبي ﷺ، ثمَّ قال: يا رسول الله أيُّ المؤمنين أفضل؟ قال: ((**أحسنهم خلقاً**)) قال: فأيُّ المؤمنين أكيسُ؟ قال: ((**أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً، أولئك الأكياسُ**))[3].

وعن جابر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إنَّ الموتَ فَزَعٌ**))[4].

أي: يفزع إليهِ ومنه، وهو تنبيهٌ على استذكاره، وإعظامهِ .

---

[1] رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصححه الألباني رحمه الله في« صحيح سنن الترمذي» (١٣٣٨) .

[2] رواه الترمذي (٢٣٠٧)،وصححه الألباني رحمه الله في"صحيح سنن الترمذي" (٢/٥٢٦) .

[3] رواه ابن ماجه (٤٢٥٩)،وحسنه الألباني رحمه الله في"صحيح سنن ابن ماجه"(٣٤٥٤) .

[4] رواه مسلم (٩٦٠) .

٢ـ زيارة القبور:

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ أَلاَ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ القَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ))[١].

فهذه موعظة عظيمة إذا عمل الإنسان بها نفعته وصلحت أحواله . فهل من سامعٍ منيبٍ، وأواهٍ حليمٍ للنصيحة يستجيب ؟!

٣ـ التفكرُ بأهوال ما بعد الموت :

النصوصُ في هذا المجال كثيرةٌ جداً ،سأذكرُ القليلَ عظةً وذكرى:

عن البراء ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جِنازةٍ،فجلسَ على شفيرِ القبر،فبكى حتى بلَّ الثرى ثمَّ قال: ((**يا إخواني لمثل هذا فأعدُّوا**))[٢].

إنَّ القلبَ ليخشع، وإنَّ العينَ لتدمع من هولِ هذا الموقف العصيبِ رسول الله ﷺ يبكي حتى تبل دموعه الثرى وهو من هو بأبي هو وأمي، فماذا يجبُ علينا أن نفعلَ وحالنا لا يخفى على أحد؟

فإذا كان رسول الله ﷺ يبكي وقد أمَّنهُ الجبارُ من أليمِ العذاب، ووعدهُ بالجنَّةِ وحسنِ المآب، فكيفَ بأمثالنا المساكين؟ وكيف بمن ترك الحق والصواب، وخالفَ السنة والكتاب . وأطاعَ الشيطان، وأفنى عمره في معصية الملك الوهَّاب ؟

الذنوبُ كثيرةٌ، والآمالُ عريضةٌ وفيرةٌ، كثرت الأقوالُ، وقلَّتِ الأعمالُ واندثرَ جميلُ الخصالِ، واضمحلَّ خوفنا من ذي الجلال .

نسينا التوبةَ فلم نتب وكأننا من أهلِ الجنَّةِ، وعواتقنا أثقلتها عظائمُ الذنوبِ، وغفلنا عن ذكرِ الموتِ والقبر والقيامة، ولم يغفل ﷺ .

رسول الله ﷺ يبكي ونحن نضحكُ، يستعد للموتِ والقبرِ، وما وراء ذلك، ونحنُ لا نذكرُ ذلك مجرّد الذكرِ إلاَّ قليلاً ،يستغفرُ في اليومِ مئة مرة ونحنُ ولا مرة إلا من رحم الله عز وجل .

ولقد أحسن القائل:

---

[١] أخرجه الحاكم (١ / ٣٧٦) وصححه الألباني رحمه الله في " صحيح الجامع " (٤٥٨٤) .

[٢] رواه ابن ماجه (٤١٩٥)،وحسنه الألباني رحمه الله في"صحيح سنن ابن ماجه"(٣٤٠٢) .

عـلى عــدمِ البكــاءِ أُخيَّ فابــكِ فمـــا جــدوى الحيـــاةِ وأنتَ لاهِ
ومـــا طعــمُ الحيـــاةِ بـــلا أنـــينٍ ومـــا الدنيـــا بـــلا دمـــعٍ وآهِ

لقد حُقَّ لنا البكاء، ولكن أين هذه القلوب التي تبكي، أين هي طالما شغلت بالغناء ومشاهدة الأفلام .

ومن كان هذا حاله، لحريٌّ أن تجري دائماً دموعه، وحقيقٌ أن يقلَّ في الدجى هجوعه .

طوبى لمن سهرتْ بالليل عيناه
وبات في قلقٍ منْ حبِّ مولاه
وناح يوماً على تفريطهِ وبكى
خوفاً لما قد جنى منْ خطاياه

عن هانئ مولى عثمان ﷺ قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ! فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا ؟! فقال إن رسول الله ﷺ قال: ((**إن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه؛ فما بعده أشد منه !**)) قال: وقال رسول الله ﷺ: ((**ما رأيت منظراً قط إلاّ القبر أفظع منه !**))[1].

بكى عثمان وغير عثمان لأنَّهُ الأمرُ الذي يُبكى عليه، ويُصرفُ الاهتمامُ كلُّهُ إليه . وهذا هو الذي قطعَ قلوبَ الخائفين، وأسالَ عبراتِ التائبين، وأسهرَ ليالي العابدين . فتنبه أيها المسكين من رقدةِ الغافلين .

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ يوم دفن سعد بن معاذ، وهو قاعدٌ على قبره قال: ((**لو نجا أحدٌ من فتنةِ القبرِ لنجا سعدُ بنُ معاذٍ، ولقد ضُمَّ ضمّةً، ثمَّ رُخِيَ عنه**))[2].

ماذا فعلنا لضمَّةِ القبر ؟
هل سألنا الله الشهادةَ بصدقٍ ؟
هل اتَّقينا الله في ألسنتنا ؟
هل صلَّينا بخشوعٍ ؟
هل اجتنبنا المحرَّماتِ ؟
هل سعينا لفعلِ الواجباتِ ؟

---

[1] رواه الترمذي (٢٤٢٤)، وحسنه الألباني رحمه الله في "صحيح سنن الترمذي" (١٨٧٨).

[2] رواه الطبراني (١٠٨٢٧)، وصححه الألباني رحمه الله بمجموع طرقه وشواهده في "الصحيحة" (١٦٩٥).

فلنذكر ضمَّةَ القبر في السجود، فنزيدهُ تسبيحاً ودعاءً وتضرُّعاً وابتهالاً[١].

عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**كيف أنعم وصاحبُ القرنِ قد التقمَ القرنَ، واستمعَ الإذنَ متى يؤمرُ بالنفخِ فينفخُ**)) فكأن ذلك ثقُلَ على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: ((**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيلُ، على الله توكلنا**))[٢].

كيفَ يطيب لي عيش، ويهدأ لي بال، وصاحبُ القرن ـ وهو إسرافيل ـ قد التقمَ القرن ـ وهو الصور ـ وأصغى السمع، متى يؤمر بالنفخِ فينفخ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((**تحشرون حفاةً عراةً غرلاً**)) قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله، الرجالُ والنساءُ ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: ((**الأمرُ أشدُّ من أن يُهِمَّهُم ذاكَ**))[٣].

عن سودة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: ((**يبعثُ الناسُ حفاةً عراةً غرلاً، يُلجِمُهم العرقُ، ويبلغُ شحمةَ الأُذنِ**)) قالت سودةُ: قلتُ: يا رسولَ الله! واسوءتاهُ! ينظرُ بعضنا إلى بعضٍ؟! قال: ((**شُغِلَ النَّاسُ عن ذلك**)) وتلا ﴿ **يوم يفر المرءُ من أخيه ❖ وأمه وأبيه ❖ وصاحبته وبنيه ❖ لكلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه** ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧][٤].

حفاةً بلا نعال وعراةً بلا ثياب وغرلاً بلا ختان. وصدق رسول الله ﷺ: ((**إنَّ الأمرَ أشدُّ من أن ينظرَ بعضهم إلى بعض**)) إنَّ الأمر أشدُّ من أن ينظرَ الرجالُ إلى النساءِ أو النساء إلى الرجال إنّه أعظمُ من أن تسألَ الأم عن ولدها والإبن عن أبيه، هناك قلوبٌ واجفة وأبصارٌ خاشعة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمعَ وجبةً ـ يعني سمع شيئاً سقطَ ـ فقال النبي ﷺ: ((**أتدرون ما هذا؟**)) قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((**هذا حجرٌ رميَ به في النَّارِ منذ سبعينَ خريفاً؛ فهو يهوي في النَّارِ الآن حتى انتهى إلى قَعرها**))[٥].

هذا قعرها ـ والعياذ بالله ـ وستملأُ يوم القيامة من الخلق الذين ضيَّعوا أنفسهم في هذه الدنيا، وضيَّعوا أعمارهم وأوقاتهم، وداهمهمُ الموتُ وهم على غير استعدادٍ، سيصلون إلى هذه النار، وهم سُكَّانها ـ والعياذ بالله ـ وقود النار وحطبها.

---

[١] سعد بن معاذ (ص٤٥) للشيخ حسين العوايشة حفظه الله.

[٢] رواه الترمذي (٢٤٣١)، وصححه الألباني رحمه الله في "صحيح سنن الترمذي" (٥٧٨/٢).

[٣] رواه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

[٤] رواه الحاكم (٥١٤/٢ ـ ٥١٥) وحسنه لغيره الألباني في "الصحيحة" (٣٤٦٩).

[٥] رواه مسلم (٢٨٤٤).

والإنسان كلُّ إنسانٍ، هو على خطرٍ عظيمٍ؛ لأنَّهُ لا يدري، هل يكون من الناجين أو من الهالكين؟ فكيف يطمئنُّ الإنسانُ ويأمنُ على نفسه، وهو لا يدري: هل ينجو أو لا ينجو؟ فحقُّهُ أن لا يفتُرَ من البكاءِ، ولا يستقرَّ بهِ قرارٌ.وأن يكونَ على حذرٍ،لأنَّه معرَّضٌ لهذا الخطر .

ولله درُّ القائل:

فكيفَ قرَّت لأهلِ العلمِ أعينهم ... أو استلذوا لذيذ النَّومِ أو هجعوا

والموتُ جهراً علانيةً ينذرهم ... لو كانَ للقومِ أسماعٌ لقد سمعوا

والنَّارُ ضاحيةٌ لا بدَّ موردها ... وليسَ يدرون من ينجو ومن يقعُ

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**يؤتى بجهنمَّ يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زِمامٍ،مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يجرُّونها**))[1].

والزمامُ: ما يُزَمُّ به الشيءُ؛ أي: يُشَدُّ ويُربطُ، وهذه الأزمَّةُ التي تُساقُ جهنمُ بها تمنعُ من خروجها على أهلِ المحشرِ، فلا يخرجُ منها إلاَّ الأعناق التي أُمِرَتْ بأخذِ من شاءَ الله أخذه .

وهذا يدلُّ على عظمة هذه النَّار . نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين منها ومن هولِ ذلك اليوم . فهذا العددُ الكبيرُ من الملائكةِ يدلُّ على أنَّ الأمرَ عظيمٌ والخطرَ جسيمٌ .

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطبُ فقال:((**أنذرتُكُمُ النَّارَ، أنذرتُكُمُ النَّارَ، أنذرتُكُمُ النار**)) فما زال يقولها، حتى لو كان في مقامي هذا لسمعه أهلُ السوقِ، وحتى سقطت خميصةٌ كانت عليه عند رجليه[2].

عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((**ناركم جزءٌ من سبعينَ جزءاً من نار جهنمَّ**)) قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافيةً ؟! قال: ((**فُضِّلَت عليهنَّ بتسعةٍ وستينَ جزءاً، كلُّهنَّ مثلُ حرِّها**))[3].

يعني: أنَّهُ لو جُمعَ كلُّ ما في الوجود من النار التي يوقدها بنو آدم لكانت جزءاً من أجزاءِ جهنمَ المذكورة، وبيانه: أنه لو جُمِعَ حطبُ الدنيا فوُقِد كلُّهُ حتى صار ناراً؛ لكان الجزءُ الواحدُ من أجزاءِ نار جهنم؛ أشد من حرِّ نار الدنيا .

---

[1] رواه مسلم (٢٨٤٢).

[2] رواه الدارمي (٢٨١٢)،وصححه الألباني رحمه الله في التعليق على"هداية الرواة"(٥/٢٣١) .

[3] رواه البخاري (٣٢٦٥)،ومسلم (٢٨٤٣) .

فإذا كنتَ يا عاصي على النَّار لا تقوى فبادر إلى التوبة، ونُح أسفاً من أجل ذنبك دائماً، فما في غدٍ يغني نواحاً وشكوى .

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**لو كان في هذا المسجد مائةُ ألفٍ أو يزيدون، وفيه رجلٌ من أهلِ النَّارِ فَتَنَفَّسَ فأصابهم نَفَسُهُ، لاحترقَ المسجدُ ومن فيه**))[1].

نسأل الله الحيَّ القيومَ ذا الجلال والإكرام أن يجيرنا وإيَّاكم من النَّار بمنِّه وكرمه وجوده وإحسانه إنَّه سميعٌ مجيب .

٤ـ قراءة القرآن بالتدبر:

عَن ابن مَسعودٍ ﷺ قالَ: قال لي النبيُّ ﷺ: ((**اقْرَأْ علَّي**)) قلتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟ قالَ: ((**فإني أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**)) فقرأْتُ عليه سورَةَ النِّساء، حتى بلغت: ﴿ **فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّة بِشَهيد وجِئْنا بِكَ عَلى هَؤلاءِ شَهيداً** ﴾ [النساء : ٤٠] قال: ((**أمسك**)) فَإِذَا عِيْناهُ تَذْرِفانِ[2].

وإنَّما بكى ﷺ عند هذا لأنَّه مثَّلَ لنفسه أهوال يوم القيامة الرهيبة العظيمة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بتصديقه والإيمان به، وسؤاله الشفاعة لهم ليريحهم من طول الموقف، وأهواله، وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن .

إنَّ كتابَ الله يتلى بين أظهرنا ويسمع، وهو القرآنُ الذي لو أنزلَ على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً يتصدَّع، ومع هذا فلا قلبٌ يخشع، ولا عينٌ تدمع .

قال الله تعالى: ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾ [الحشر: ٢١]

فهذه حالُ الجبالِ وهي الحجارَةُ الصَّلبَةُ، وهذه رِقَّتُها وخشيتُها وتَدَكْدُكُها من جلال ربِّها وعظمتِهِ، وخشيته .

فيا عَجَباً من مُضغَةِ لحمٍ كانت أقسى من هذه الجبالِ تُخَوَّفُ من سطوةِ الجبَّارِ وبطشه، فلا ترعوي ولا ترتدع، وتَسمعُ آياتِ الله تُتلى عليها، ويُذكَرُ الرَّبُ سبحانه وتعالى فلا تلينُ ولا تَخشَعُ ولا تُنيبُ .

فمَن لم يُلِنْ للّهِ في هذه الدَّارِ قلبهُ، ولم يُنِب إليهِ، ولم يُذِبْهُ بحبِّهِ والبُكاءِ من خَشيَتِه فلْيَتمتَّعْ قليلاً، فإنَّ أمامَهُ المُلَيِّنَ الأعظمَ، وسَيُردُّ إلى عالمِ الغَيبِ والشهادَةِ فيَرى ويعلم!.

---

[1] رواه البزار (٣٤٩٩ـ زوائده)، وأبو يعلى (٦٦٧٠). وصححه الألباني رحمه الله في "الصحيحة" (٢٥٠٩) .

[2] رواه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠) .

٥- التباكي:

اعلم أنَّ التباكي دونَ البكاءِ في المنزلةِ والمرتبةِ، ولكنه سبيلُ البكاءِ وذلك لأنَّ المتباكي ممن يجاهد نفسهُ ويحاسبها، وممن يسعون لتحقيقِ مرضاةِ اللّه عز وجل، واللّه سبحانه يقول: ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

عن ابن أبي مليكة قال: جلسنا إلى عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنهما في الحِجر فقال: ابكوا، فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا، لو تعلمون العلم لصلَّى أحدكم حتى ينكسر ظهره، ولبكى حتى ينقطع صوته[1].

وعن التباكي قال ابن القيم بعد ذكره أنواع البكاء:

وما كان منه مستدعىً متكلفاً فهو التباكي وهو نوعان: محمود ومذموم فالمحمود: أن يُستجلب لرقة القلب ولخشية اللّه، لا للرياء والسمعة، والمذموم: يُجتلب لأجل الخلق .

وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ للنبي ﷺ وقد رآه يبكي هو وأبو بكر ﷺ في شأن أسارى بدر: أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد تباكيتُ لبكائِكما[2]. ولم ينكر عليه ﷺ .

أخي الحبيب: هل ضمنتَ النجاةَ والجنَّةَ ؟ فابكِ الدموعَ الآن؛ بكاءً تؤجرُ عليه في دنياكَ؛ قبلَ أن تبكي بكاءً لا أجرَ لك فيه ولا ثوابَ في أُخراك.

عن أبي رزين رحمه اللّه في قوله تعالى: ﴿ **فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً** ﴾ [التوبة: ٨٢]؛ قال: الدنيا كلُّها قليل، فليضحكوا فيها ما شاؤوا، وإذا صاروا إلى الاخرة بكوا بكاءً لا ينقطع، فذلك ﴿**كثيراً** ﴾[3].

فإن لم تبكِ أو تتباكَ؛ فإيمانك ضعيفٌ والدنيا قد أخذت مأخذَها منك، وأنت على خطرٍ عظيمٍ، ففرَّ إلى اللّه، واغتنم الحياة قبل الممات، وسارع إلى التوبة النصوح، والإنابة الصادقة، والأعمال الصالحة .

---

[1] رواه الحاكم (٤/٥٧٨ ـ ٥٧٩)، وصححه موقوفاً الألباني رحمه اللّه في "صحيح الترغيب والترهيب"(٣٣٢٨) .

[2] رواه مسلم (١٧٦٣) .

[3] أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٤١٨)، وابن جرير(١٠/٢٠٢و٢٠٣) بسند صحيح .

أسباب عدم البكاء من خشية الله:

الدموع من أجل الله تعالى، أروع نعمة يمنُّ بها الله تعالى على من يشاء من عباده، والمحروم من قحطت عينه، ولم تتندَّ بالدمع، فذلك علامة على قسوة القلب والعياذ بالله .. وما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوةِ القلبِ والبعدِ عن الله . خُلِقَتِ النارُ لإذابةِ القلوبِ القاسية . أبعدُ القلوبِ من الله القلب القاسي .

وعلاج قسوة القلب **كثرة ذكر الله عز وجل** . فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل .

واعلم بأنَّ القلوب الميتة تحيا بالذكر كما تحيا الأرض الميتة بالقطر .

والذكرُ فيه حياةُ القلوبِ كما يُحيي البلادَ إذا ما ماتت المطرُ

وفي الختام: هلا بكينا لقسوة قلوبنا ؟! هلاَّ بكينا لله لعلَّ الله يرحمنا ؟!

هلاَّ بكينا خوفاً من النار ؟! هلاَّ بكينا خوفاً من سوء الخاتمة ؟!

ونسأل الله تعالى أن يجعل قلوبنا وجلةً لينةً رقيقةً، وأعيننا دامعةً من خشيته .

عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إنّ لله آنية في الأرض، وآنية ربّكمْ قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينها وأرقُّها**))[2].

هذا ما تيسر جمعه حول هذه الخصلة الجليلة القدر العظيمة الشأن وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

[1] أخرجه أحمد (٥ / ٢٦٧)، وجوَّد إسناده العلامة الألباني رحمه الله في "الصحيحة" (١٠٩٥) .



الإحسان حقيقته وثمرته

إعداد: فضيلة الشيخ أحمد بن إبراهيم الحاج ❖

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد: هذا بحث موجز نتحدّث فيه عن (حقيقة الإحسان وثمرته) من خلال بيان معنى الإحسان وأنواعه وثمرته . نسأل اللّه تعالى أن ينفعنا بهذه الكلمات، وأن يجعلنا من المحسنين، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

❖ **معنى الإحسان:** الإحسان مأخوذ من أَحْسنَ إذا فعل الأمرَ الحسنَ . قال الإمام القرطبي: (وهو اسم فاعل من أحسن . والمحسن: من صحّح عقد توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على أداء فرائضه، وكفى المسلمين شرّه) [1]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والإحسان هو إحسان العمل للّه، وهو فعل ما أمر به فيه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾[الكهف: ٣٠] فإن الإساءة في العمل الصالح تتضمن الاستهانة بالأمر به، والاستهانة بنفس العمل، والاستهانة بما وعده اللّه من الثواب فإذا أخلص العبد دينه للّه وأحسن العمل له كان ممّن أسلم وجهه للّه وهومحسن، فكان من الذين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[2].

يتعدّى الإحسان بنفسه، كقوله ﷻ: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة: ٧] . ويتعدّى بفي، كقوله ﷻ في قصة ذي القرنين: ﴿ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ [الكهف:٨٦] . ويتعدّى بإلى، كقوله ﷻ: ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧] . ويتعدّى بالباء،

❖ خريج كلية الحديث، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، إمام وخطيب ومدرس، ومدير مركز تحفيظ القرآن الكريم في نهر البارد ـ لبنان . له عدة مؤلفات مطبوعة، هي: لماذا لُعن اليهود في القرآن والسنة ـ أربعون حديثاً لشيخ الإسلام ابن تيمية (تخريج وتعليق) ـ المنتقى المختار من كتاب العلو للعلي الغفار، إضافة إلى عدد من المؤلفات المخطوطة .

[1] تفسير القرطبي (٢٨٢/١) سورة البقرة .

[2] مجموع الفتاوى (٢٥١/١٨) .

كقوله ﷻ في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠] .
ويتعدّى باللام، كقوله ﷻ: ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٧] .

ومن خلال التّتبّع والاستقراء وجدتُ أن الإحسان يأتي بعدّة معانٍ منها:

١ـ الجود والعطاء والإنفاق: كقوله ﷻ: ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:١٩٥] . عن حذيفة رضي الله عنه قال: (نزلت في النفقة) [١].

٢ـ العدل والإنصاف والتفضّل والإنعام وفعل الخير: كقوله ﷻ: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف:٧٨] . قال الحافظ ابن كثير: (من المحسنين أي العادلين المنصفين القابلين للخير)[٢].

٣ـ العلم والحكمة: كقوله ﷻ في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦] . قال الإمام البغوي: (أي العالمين بعبارة الرؤيا، والإحسان بمعنى العلم) [٣].

٤ـ الإتقان والإتمام والتجميل: كقوله ﷻ: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ [السجدة:٧] . وكقوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين:٤] .

قال الإمام القرطبي: (أحسن أي أتقن وأحكمَ)[٤]. وقال الإمام البغوي: (قال ابن عباس رضي الله عنهما: أتقنه وأحكمه)[٥].

٥ـ الإخلاص والمراقبة وحسنُ الطاعة والعبادة لله: ففي حديث جبريل عليه السلام قال فأخبرني عن الإحسان قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[٦].
وفي رواية قال: ((أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك))[٧].

---

[١] رواه البخاري كتاب التفسير (باب وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) (٣٣/٨) الفتح .

[٢] تفسير ابن كثير (٥٠٤/٢) .

[٣] تفسير البغوي (٣٥٨/٢) .

[٤] تفسير القرطبي (٦١/١٤) .

[٥] تفسير البغوي (٤٢٩/٣) .

[٦] رواه البخاري كتاب الإيمان (باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان) (١٤٠/١) الفتح، ومسلم كتاب الإيمان (باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان) (٣٦/١ ـ ٣٧) .

[٧] رواه مسلم كتاب الإيمان (باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان) (١/ ٤٠) .

فمن راقب الله أحسن عملَه .. ومن خشي الله أحسنَ عملَه .. فالإحسان بهذا المعنى هو مرتبة أعلى من مرتبة الإسلام والإيمان .

❖ **أنواع الإحسان:** أمر الله ﷻ بالإحسان فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والأَحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠] عن عبد الله ﷺ قال: إن أجمع آية في القرآن للخير والشَّر في سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

وعن الحسن أنه قرأ يوماً هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ إلى آخرها ثم وقف فقال: (إن الله ﷻ جمع لكم الخير كلّه والشَّر كلّه في آية واحدة، فوالله ما تركَ العدلُ والإحسانُ من طاعة الله شيئاً إلاَّ جمعَهُ، ولا ترك الفحشاءُ والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلاَّ جمعَهُ)[2].

وأمر النبي ﷺ بالإحسان: عن شداد بن أوس ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء ..))[3]. وعن سمرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إن الله محسن فأحسنوا))[4].

وفيما يلي نعرض لذكر أنواع من الإحسان الذي أمر به الله ﷻ ورسوله ﷺ:

١ـ **الإحسان في العبادة :** وهذا هو المقصود في حديث جبريل عليه السلام قال: فأخبرني عن الإحسان قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[5].قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (قيل: إن الإحسان هو الإخلاص، والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره، والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله، قال تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُو مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢].

---

[1] رواه الحاكم كتاب التفسير (٣٣٨/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي والبيهقي في شعب الإيمان (باب في تعظيم القرآن)(٤٧٣/٢) .

[2] رواه البيهقي في شعب الإيمان (باب في الإيمان برسل الله) (١٦١/١ـ ١٦٢) .

[3] رواه مسلم كتاب الصيد والذبائح (باب الأمر بإحسان الذبح والقتل) (١٥٤٨/٣) .

[4] رواه ابن عدي في الكامل وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٢٣) .

[5] رواه البخاري كتاب الإيمان (باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان) (١٤٠/١) الفتح، ومسلم كتاب الإيمان (باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان) (٣٦/١ ـ٣٧) .

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُو مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٥] فذكر إحسان الدِّين أولاً، ثم ذكر الإحسان ثانياً، فإحسان الدِّين هو ـ والله أعلم ـ الإحسان المسؤول عنه فى حديث جبريل فإنه سأله عن الإسلام والإيمان)[١]. وقال: (جعل النبي ﷺ الدّين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام، فكلّ محسن مؤمن، وكلّ مؤمن مسلم، وليس كلّ مؤمن محسناً، ولا كلّ مسلم مؤمناً)[٢].

قال الحافظ ابن حجر: (وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود، وأشار في الجواب إلى حالتين: أرفعهما أن يغلب عليه مشاهدة الحقّ بقلبه حتى كأنه يراه بعينه وهو قوله كأنك تراه أي وهو يراك، والثانية أن يستحضر أن الحقَّ مطّلع عليه يرى كل ما يعمل وهو قوله فإنه يراك، وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته)[٣].وقال: (والإحسان يتضمّن مقامات السالكين من الزهد والإخلاص والمراقبة وغيرها)[٤].

قال ابن القيم: (منزلة الإحسان: وهي لبُّ الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها، وكلّ ما قيل من أول الكتاب إلى ههنا فهو من الإحسان)[٥].

٢ـ الإحسان في العمل: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أنبئكم بخياركم من شراركم ؟)) قالوا: بلى . قال: ((خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم عملاً))[٦]. وعن أبي بكرة ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله أيّ الناس خير ؟ قال: ((من طال عمره وحسن عمله)) . قال فأيّ الناس شر ؟ قال: ((من طال عمره وساء عمله))[٧].

---

[١]مجموع الفتاوى (٦٢٢/٧) .

[٢]مجموع الفتاوى (٧/٧) .

[٣]فتح الباري (١٤٦/١) .

[٤]فتح الباري (٣٥٣/١١) .

[٥]مدارج السالكين (٤٥٩/٢) .

[٦]رواه الحاكم كتاب الجنائز (٤٨٩/١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . ورواه أحمد (٢٣٥/٢) عن أبي هريرة ﷺ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٦٣) .

[٧]رواه أحمد (٤٠/٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٦٧) .

٣ـ الإحسان إلى الوالدين: أمر الله ﷻ بالإحسان إلى الوالدين فقال: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ [النساء:٣٦] . وقال: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوكِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ [الإسراء:٢٣] . وأمر النبي ﷺ بذلك وأوصى به: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل ؟ قال: ((الصلاة لوقتها)) قال: قلت: ثم أيّ ؟ قال: ((بر الوالدين)) . قال: قلت: ثم أيّ ؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله))[١] . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله . قال: ((فهل من والديك أحد حيٌّ ؟)) قال: نعم بل كلاهما. قال: ((فتبتغي الأجر من الله ؟)) قال: نعم . قال: ((فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما))[٢].

قال الحافظ ابن حجر: (قوله: ((ففيهما فجاهد)) أي إن كان لك أبوان فأبلغ جهدك في برّهما والإحسان إليهما، فإن ذلك يقوم لك مقام قتال العدو)[٣]. والمراد بالإحسان إليهما: أداء حقوقهما من البر والطاعة والصلة وعدم العقوق ... قال الإمام الشوكاني: (والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما وامتثال أمرهما، وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق)[٤].

٤ـ الإحسان إلى الأهل والزوجة: قال الإمام البخاري: (باب حسن المعاشرة مع الأهل ..) عن عائشة رضي الله عنها قالت: جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهنّ شيئاً ... قالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ: ((كنتُ لكِ كأبي زَرْعٍ لأمِّ زَرْع))[٥].

قال الحافظ ابن حجر: (قوله باب حسن المعاشرة مع الأهل قال ابن المنير: نبّه بهذه الترجمة على أن إيراد النبي ﷺ هذه الحكاية ـ يعني حديث أم زرع ـ ليس خلياً عن فائدة شرعية وهي الإحسان في معاشرة الأهل)[٦].

---

[١] رواه البخاري كتاب مواقيت الصلاة (باب فضل الصلاة لوقتها) (١٢/٢) الفتح، ومسلم كتاب الإيمان (باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال) (٨٩/١) .

[٢] رواه مسلم كتاب البر والصلة (باب بر الوالدين) (١٩٧٥/٤) .

[٣] فتح الباري (٤١٧/١٠) .

[٤] فتح القدير (٢٢٤/١) .

[٥] رواه البخاري كتاب النكاح (باب حسن المعاشرة مع الأهل) (١٦٣/٩) الفتح ومسلم كتاب فضائل الصحابة (باب ذكر حديث أم زرع) (١٨٩٦/٤ ـ ١٩٠١) .

[٦] فتح الباري (١٦٤/٩) .

ولقد كان رسول الله ﷺ خير الناس لأهله، وأحسنهم إليهم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : ((خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي))[١].

٥- **الإحسان إلى البنات والأخوات:** عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليَّ النبي ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: ((من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهنَّ كنَّ له ستراً من النار))[٢]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((من كانت له أختان فأحسن صحبتهما ما صحبتاه دخل بهما الجنة)) وقال محمد بن عبيد: ((تدرك له ابنتان فأحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخله الله تعالى الجنة))[٣].

٦- **الإحسان إلى الأقارب:** قال ﷻ: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي القُرْبَى ﴾ [النساء:٣٦] . قال الإمام الشوكاني: (والقربى: .. هم القرابة، والإحسان بهم: صلتهم والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة وبقدر ما تبلغ إليه القدرة)[٤].

وقال ابن القيّم: (فجعل سبحانه حقّ ذي القربى يلي حقّ الوالدين، كما جعله النبي ﷺ سواءً بسواء، وأخبر سبحانه أن لذي القربى حقاً على قرابته، وأمر بإتيانه إياه، فإن لم يكن ذلك حقّ النفقة فلا ندري أيّ حقّ هو. وأمر تعالى بالإحسان إلى ذي القربى، ومن أعظم الإساءة أن يراه يموت جوعاً وعُرياً وهو قادر على سدّ خَلّته وستر عورته، ولا يطعمه لقمة، ولا يستر له عورة إلا بأن يقرضه ذلك في ذمته)[٥].

٧- **الإحسان إلى الجيران:** وهذا أمر الله ﷻ القائل: ﴿ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى والمَسَاكِينِ والجَارِ ذِي القُرْبَى والجَارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [النساء:٣٦].

---

[١] رواه الترمذي كتاب المناقب (باب فضل أزواج النبي ﷺ) (٧٠٩/٥) وابن ماجه كتاب النكاح (باب حسن معاشرة الزوجة) (٦٣٦/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما . وروواه الطبراني (٣٦٣/١٩) رقم (٨٥٣) عن معاوية ﷺ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣١٤) .

[٢] رواه البخاري كتاب الأدب (باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته) (٤٤٠/١٠) الفتح، ومسلم كتاب البر والصلة (باب فضل الإحسان إلى البنات) (٢٠٢٧/٤) .

[٣] رواه أحمد (٢٣٥/١) .

[٤] فتح القدير (٢٢٤/١) .

[٥] زاد المعاد في هدي خير العباد (٥٤٤/٥) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (الجار ذي القربى يعني الذي بينك وبينه قرابة، والجار الجنب: الذي ليس بينك وبينه قرابة)[١]. وقال الحافظ ابن حجر: (وقيل: الجار القريب: المسلم، والجار الجنب: غيره، وأخرجه أيضاً الطبري عن نوف البكالي أحد التابعين)[٢].

وقد وردت جملة من الأحاديث النبوية تأمر بالإحسان إلى الجار وتبيّن حقوقه: عن أبي شريح الخزاعي ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ..))[٣]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه ليورِّثنَّه))[٤].

٨ـ **الإحسان إلى اليتامى:** حيث وصّى الله ﷻ بهم، وأمر بالإحسان إليهم فقال ﷻ: ﴿ وبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وذِي القُرْبَى واليَتَامَى ﴾ [البقرة:٨٣] . وقد حث النبي ﷺ على الإحسان إلى اليتامى في كثير من الأحاديث منها: عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك ؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك))[٥]. وعن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)) وقال بأصبعيه السبّابة والوسطى[٦].

٩ـ **الإحسان إلى الفقراء والمساكين:** قال ﷻ: ﴿ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ ﴾ [البقرة:٨٣] .

وقد حثَّ النبي ﷺ على الإحسان إلى المساكين، وبيّن جزاء من يفعل ذلك، قال الإمام مسلم: (باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم ... عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ـ وأحسبه قال ـ وكالقائم لا يَفتُر، وكالصائم لا يفطر))[٧].

---

[١] تفسير ابن كثير (٥٠٦/١) .

[٢] فتح الباري (٤٥٥/١٠) .

[٣] رواه مسلم كتاب الإيمان (باب الحث على إكرام الجار والضيف) (٦٩/١) .

[٤] رواه البخاري كتاب الأدب (باب الوصاة بالجار) (٤٥٥/١٠) الفتح، ومسلم كتاب البر والصلة (باب الوصية بالجار والإحسان إليه) (٢٠٢٥/٤) .

[٥] رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠) .

[٦] رواه البخاري كتاب الأدب (باب فضل من يعول يتيماً) (٤٥٠/١٠) .

[٧] صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق (باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم) (٢٢٨٦/٤ ـ٢٢٨٧)، ورواه البخاري كتاب الأدب (باب الساعي على الأرملة) (٤٥١/١٠) الفتح .

١٠ـ الإحسان إلى ملك اليمين: قال ﷻ: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء:٣٦] قال الإمام القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أمر الله تعالى بالإحسان إلى المماليك، وبيّن ذلك النبي ﷺ .. فندب ﷺ السادة إلى مكارم الأخلاق، وحضّهم عليها، وأرشدهم إلى الإحسان ..)[1].

ووردت جملة من الأحاديث تأمر بالإحسان إليهم منها: عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من كانت له جارية فعالها فأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران))[2].

١١ـ الإحسان إلى صحابة النبي ﷺ: عن جابر بن سمرة ﷺ قال: خطبنا عمر بن الخطاب ﷺ بالجابية قال: قام فينا رسول الله ﷺ اليوم فقال: ((أحسنوا إلى أصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل على اليمين لا يسألها))[3]. فمن الإحسان إلى الصحابة ﷺ: الترضي عنهم ﷺ، ومحبّتهم، وعدم سبّهم أو النيل منهم، وإحسان الظّنِّ بهم، والإمساك عمَّا بدَرَ منهم ﷺ، رضي الله عن جميع صحابة رسول الله ﷺ، وعمّنا معهم بفضله ورحمته إنه ذو الفضل العظيم .

١٢ـ الإحسان إلى العلماء: عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((ليس منّا من لم يجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا))[4]. فمن حقّ العلماء علينا أن نُحسن إليهم، ومن الإحسان للعلماء التواضع لهم، وخفض الجانبِ، والتقدير والاحترامُ، وعدم الطعن أوالانتقاص منهم .

١٣ـ الإحسان إلى الضيف: عن أبي شريح الخزاعي ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت))[5].

١٤ـ الإحسان إلى الناس: قال ﷻ: ﴿ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ [البقرة:٨٣] . قال الحافظ ابن كثير: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾

---

[1] تفسير القرطبي (١٢٤/٥) .

[2] رواه البخاري كتاب العتق (باب فضل من أدّب جاريته وعلّمها) (٢٠٥/٥) الفتح .

[3] رواه ابن حبان (١٢٢/١٥) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٣٠) .

[4] رواه أحمد (٣٢٣/٥) والحاكم كتاب العلم (٢١١/١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٤٣) .

[5] رواه مسلم كتاب الإيمان (باب الحث على إكرام الجار والضيف) (٦٩/١) .

أي كلموهم طيباً، ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف)[١].

وقال ﷻ في الأمر بالإحسان إلى الناس: ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص:٧٧] قال الحافظ ابن كثير: (أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك)[٢].

١٥- الإحسان إلى المسيء: قال ﷻ: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ❖ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُوحَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤ - ٣٥].

وبيّن النبي ﷺ حقيقة الإحسان إلى المسيء: عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله إنّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: ((لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك))[٣]. وعن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((صِلْ من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل الحق ولو على نفسك))[٤].

١٦- الإحسان إلى الحيوان: عن شداد بن أوس ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح، وليُحِدَّ أحدكم شفرته فليرح ذبيحته))[٥]. وعن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((عُذّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض))[٦]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثل الذي كان بلغ منّي . فنزل البئر فملأ خفّه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقيَ،

---

[١] تفسير ابن كثير (١/١٢٤).

[٢] تفسير ابن كثير (٣/٤١٠).

[٣] رواه مسلم كتاب البر والصلة (باب صلة الرحم) (٤/١٩٨٢).

[٤] رواه ابن النجار، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٦٩).

[٥] رواه مسلم كتاب الصيد والذبائح (باب الأمر بإحسان الذبح والقتل) (٣/١٥٤٨).

[٦] رواه مسلم كتاب السلام (باب تحريم قتل الهرة) (٤/١٧٦٠).

فسقى الكلبَ، فشكر اللهُ له فغفر له، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجراً ؟ فقال: في كلّ كبد رطبة أجر))[١].

١٧ـ الإحسان إلى الكافر غير المحارب: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قدمت عليَّ أمي وهي راغبة أفأَصِلُ أمي ؟ قال: ((نعم صلي أمك))[٢].

١٨ـ الإحسان إلى الزَّانية حتى إقامة الحدِّ: عن عمران بن حصين ﷺ أن امرأة من جهينة أتت نبيَّ الله ﷺ وهي حبلى من الزنى فقالت: يا نبَّي الله، أصبت حدّاً فأقمه عليَّ . فدعا نبيُّ الله ﷺ وليها فقال: ((أحسن إليها ، فإذا وضعت فائتني بها)) . ففعل . فأمر بها نبيُّ الله ﷺ فشُكَّت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرُجمت، ثم صلّى عليها . فقال له عمر ﷺ: تصلي عليها يا نبَّي الله وقد زنت ؟ فقال: ((لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟))[٣].

١٩ـ الإحسان إلى الشَّعْر: عن أبي قتادة ﷺ قال: كانت له جمة ضخمة فسأل النبي ﷺ فأمره أن يُحسن إليها ، وأن يترجل كل يوم[٤].

٢٠ـ الإحسان إلى أهل مصر: عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمّة ورحماً، أوقال: ذمّة وصهراً))[٥].

٢١ـ الإحسان بعد الإساءة: قال ﷻ: ﴿ إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النمل:١١] . وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤] .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن معاذ بن جبل ﷺ أراد سفراً ، فقال: يا نبي الله

---

[١] رواه البخاري كتاب الأدب (باب رحمة الناس والبهائم) (١٠/٤٥٢) الفتح، ومسلم كتاب السلام (باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها) (٤/١٧٦١) .

[٢] رواه البخاري كتاب الأدب (باب صلة الوالد المشرك) (١٠/٤٢٧) الفتح، ومسلم كتاب الزكاة (باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين ..) (٢/٦٩٦) .

[٣] رواه مسلم كتاب الحدود (باب من اعترف على نفسه بالزنى) (٣/١٣٢٤) .

[٤] رواه النسائي كتاب الإيمان وشرائعه (٨/١٨٤) . وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢١٨) عن أبي قتادة ﷺ بلفظ: أكرم شعرك وأحسن إليه .

[٥] رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة (باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر) (٤/١٩٧٠) .

أوصني . قال: ((اعبد الله لا تشرك به شيئاً)) . قال: يا نبي الله زدني . قال: ((إذا أسأت فأحسن)) . قال: يا رسول الله زدني . قال: ((استقم وليحسن خلقك))[١] . وعن أبي ذر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اتَّقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالق الناس بخلق حسن))[٢].

٢٢ـ الإحسان في الدعوة: حيث بيّن الله ﷻ ذلك فقال: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] . قال الإمام القرطبي: (أمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطّف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة)[٣].

٢٣ـ الإحسان في القول: قال ﷻ: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣] . وقال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣] . قال الحسن: (هذه الآية عامة في كل من دعا إلى الله)[٤].

٢٤ـ الإحسان في الأخلاق: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: ((إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً))[٥].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً . وقال: ((إن من أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقاً))[٦].

٢٥ـ الإحسان في الصلاة على النبي ﷺ: عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة ﷺ، فقال له بشير بن سعد ﷺ: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك ؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنّينا أنه لم يسأله . ثم قال رسول الله ﷺ: قولوا: ((اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما

---

[١] صحيح ابن حبان (٢ /٢٨٣) والحاكم كتاب الإيمان (١٢١/١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣١٧) .

[٢] رواه الترمذي كتاب البر والصلة (باب ما جاء في معاشرة الناس) (٣٥٥/٤)، والحاكم كتاب الإيمان (١٢١/١) والدارمي كتاب الرقاق (باب في حسن الخلق) (٤١٥/٢)، وأحمد (١٥٣/٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧) .

[٣] تفسير القرطبي (١٣١/١٠) .

[٤] تفسير القرطبي (٢٣٥/١٥) .

[٥] رواه البخاري كتاب المناقب (باب صفة النبي ﷺ) (٦٥٤/٦) الفتح، ومسلم كتاب الفضائل (باب كثرة حيائه ﷺ) (١٨١٠/٤) .

[٦] رواه البخاري كتاب فضائل الصحابة (باب مناقب عبد الله بن مسعود) (١٢٨/٧) الفتح .

صليت على آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد . والسلام كما قد علمتم))[١].

٢٦ـ الإحسان في الوضوء: عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره))[٢].

٢٧ـ الإحسان في الصلاة: عن أبي هريرة ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً ثم انصرف فقال: ((يا فلان، ألا تُحسن صلاتك ؟ ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي؟ فإنما يصلي لنفسه، إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يديّ))[٣]. وعن أبي هريرة ﷺ قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ العصر فبصر برجل يصلي فقال: ((يا فلان اتَّقِ الله، أحسن صلاتك، أترون أني لا أراكم، إني لأرى من خلفي كما أرى من بين يدي، أحسنوا صلاتكم وأتموا ركوعكم وسجودكم))[٤].

٢٨ـ الإحسان في إقامة الصفوف: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((أحسنوا إقامة الصفوف في الصلاة))[٥].

٢٩ـ الإحسان في الإمامة: عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((الإمام ضامن، فإن أحسن فله ولهم، وإن أساء يعني فعليه ولا عليهم))[٦].

٣٠ـ الإحسان في قراءة القرآن: عن البراء بن عازب ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((أحسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً))[٧].

٣١ـ الإحسان في الغسل: عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((من اغتسل يوم الجمعة

---

[١] رواه البخاري كتاب الدعوات (باب الصلاة على النبي ﷺ) (١٥٦/١١) الفتح، ومسلم كتاب الصلاة (باب الصلاة على النبي ﷺ) (٣٠٥/١) واللفظ له .

[٢] رواه مسلم كتاب الطهارة (باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء) (٢١٦/١) .

[٣] صحيح مسلم كتاب الصلاة (باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها) (٣١٩/١) .

[٤] صحيح ابن خزيمة (٣٣٢/١) .

[٥] رواه أحمد (٤٨٥/٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٥) .

[٦] رواه ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة (باب ما يجب على الإمام) (٣١٤/١)، والحاكم كتاب الصلاة (٣٣٧/١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٨٦) .

[٧] رواه الدارمي كتاب فضائل القرآن (باب التغنّي بالقرآن) (٥٦٥/٢) والحاكم كتاب فضائل القرآن (٧٦٨/١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٨١) .

فأحسن الغسل أو تطهّر فأحسن الطهور فلبس من خير ثيابه، ومسّ ما كتب الله له طيباً أو دهن أهله، ولم يفرق بين اثنين إلا غفر له إلى يوم الجمعة الأخرى))[١].

٣٢ـ الإحسان في اللباس: عن أبي هريرة ﷺ وأبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((مَن غسّل يوم الجمعة واستاك، ولبس أحسن ثيابه، وتطيّب بطيب إن وجده، ثم جاء ولم يتخطَّ الناس فصلى ما شاء الله أن يصلي، فإذا خرج الإمام سكت، فذلك كفارة إلى الجمعة الأخرى))[٢].

٣٣ـ الإحسان في التحية: قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْرُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴾ [النساء:٨٦ . وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: ((يا عائشة، هذا جبريل يقرأ عليك السلام)) . فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته [٣].

٣٤ـ الإحسان في الاتّباع: قال ﷻ: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٨] . وقال ﷻ: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠] .

٣٥ـ الإحسان في الصحبة: عن المسور بن مخرمة ﷺ قال: لما طُعن عمر ﷺ جعل يألم، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما ـ وكأنه يجزّعه ـ يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك، لقد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ،ثم صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون [٤].

٣٦ـ الإحسان في التعليم: عن معاوية بن الحكم ﷺ قال: صليت خلف رسول الله ﷺ ذات يوم فعطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت:

---

[١] صحيح ابن خزيمة (١٥٧/٣) وأحمد (١٧٧/٥ و١٨١) وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة (باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة) (٣٤٩/١) والحاكم كتاب الجمعة (٤٢٨/١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٦٤) .

[٢] رواه الحاكم كتاب الجمعة (٤١٩/١) وأحمد (٨١/٣) وأبو داود كتاب الطهارة (باب في الغسل للجمعة) (٦/٢) عون المعبود، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٦٦) .

[٣] رواه البخاري كتاب بدء الخلق (باب ذكر الملائكة) (٣٥٢/٦) الفتح، ومسلم كتاب فضائل الصحابة (باب في فضل عائشة) (١٨٩٥/٤) .

[٤] رواه البخاري كتاب فضائل الصحابة (باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ) (٥٢/٧) الفتح .

واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إليَّ ؟ قال: فضربوا بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتوني سكتُّ حتى صلى رسول الله ﷺ فدعاني، قال: فبأبي وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فما ضربني ولا كهرني ولا سبّني ..[١].

٣٧ـ الإحسان في كفن الميت: عن جابر بن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إذا كفَّن أحدكم أخاه فليحسن كفنه))[٢].

٣٨ـ الإحسان في القبر: عن هشام بن عامر ﷺ قال: شُكي إلى رسول الله ﷺ الجراحاتُ يوم أحد فقال: ((احفروا، وأوسعوا، وأحسنوا، وادفنوا الاثنين والثلاثة في قبر واحد، وقدّموا أكثرهم قرآناً))[٣].

٣٩ـ الإحسان في القضاء: عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: ((دعوه فإن لصاحب الحقِّ مقالاً)) . ثم قال: ((أعطوه سنّاً مثل سنّه)) . قالوا: يا رسول الله لا نجد إلا أمثل من سنه . فقال: ((أعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاء))[٤].

٤٠ـ الإحسان في القصاص: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ [البقرة:١٧٨] فالعفو أن يقبل الدية في العمد﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ يتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قتل بعد قبول الدية[٥].

---

[١] رواه مسلم كتاب المساجد (باب تحريم الكلام في الصلاة) (٣٨١/١) وأحمد (٤٤٨/٥) واللفظ له .

[٢] رواه مسلم كتاب الجنائز (باب في تحسين كفن الميت) (٦٥١/٢) .

[٣] رواه الترمذي كتاب الجهاد (باب ما جاء في دفن الشهداء) (٢١٣/٤) والنسائي كتاب الجنائز (باب ما يستحب من إعماق القبر) (٨١/٤) وابن ماجه كتاب الجنائز (باب ما جاء في حفر القبر) (٤٩٧/١) وأحمد (٢٠/٤) وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢) .

[٤] رواه البخاري كتاب الاستقراض (باب استقراض الإبل) (٦٩/٥) الفتح، ومسلم كتاب المساقاة (باب من استسلف شيئاً فقضى خيراً منه) (١٢٢٥/٣) .

[٥] رواه البخاري كتاب التفسير (باب ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾) (٢٥/٨) الفتح .

٤١ـ الإحسان في الطلاق: قال ﷻ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة:٢٢٩] . قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إمّا أن يمسكها بمعروف فيحسن صحبتها، أو يسرّحها بإحسان فلا يظلمها من حقّها شيئاً) [١].

٤٢ـ الإحسان في التسمية: وقد جاء في حديث قبض الروح أن الإنسان المؤمن يُذكر بأحسن أسمائه والكافر يذكر بأقبح أسمائه ((فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ... فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ...))[٢].

٤٣ـ الإحسان في القتال: عن بريدة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: ((اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهنّ ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم ..))[٣].

٤٤ـ الإحسان في الكيل: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين: ١] فأحسنوا الكيل بعد ذلك [٤].

٤٥ـ الإحسان في الاستئذان: عن رجل من بني عامر ﷺ أنه استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمة: ((أخرجي إليه فإنه لا يُحسن الاستئذان فقولي له فليقل: السلام عليكم أدخل)) . قال: فسمعته يقول ذلك فقلت السلام عليكم أدخل ؟ قال: فأذن أو قال فدخلت [٥].

---

[١] تفسير ابن كثير (٢٧٩/١) .

[٢] رواه أحمد (٢٨٧/٤) والحاكم كتاب الإيمان (٩٤/١) وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦) .

[٣] رواه مسلم كتاب الجهاد والسير (باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث) (١٣٥٧/٣) .

[٤] رواه الحاكم كتاب البيوع (٣٨/٢) .

[٥] رواه أحمد (٣٦٩/٥) وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤) .

٤٦ ـ الإحسان في الصنعة: عن عاصم بن كليب الجرمي عن أبيه أنه خرج مع أبيه إلى جنازة شهدها النبي ﷺ وأنا غلام أعقل، فقال النبي ﷺ : ((يحب الله للعامل إذا عمل أن يحسن))[١]وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه))[٢].

٤٧ ـ إحسان الظن بالله ﷻ: عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: ((لا يموتنَّ أحدُكم إلاّ وهو يُحسن الظنَّ بالله ﷻ))[٣].

❖ **ثمرات الإحسان:** يقول الله ﷻ: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن:٦٠] . قال الحافظ ابن كثير: (لا لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة)[٤]. وقد جعل الله لأهل الإحسان جزاء عظيماً، من ذلك الجزاء:

١ـ حسنة الدنيا: قال ﷻ: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل:٣٠] . قال الحافظ ابن كثير: (الحسنة في الدنيا تشمل كلّ مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل ..)[٥].

قال الإمام القرطبي: (والحسنة هنا: الجنة، أي من أطاع الله فله الجنة غداً . وقيل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ اليوم حسنة في الدنيا من النصر والفتح والغنيمة، ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ أي ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا، لفنائها وبقاء الآخرة)[٦].

٢ـ التمسك بالعروة الوثقى: قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [لقمان:٢٢] . قال الإمام القرطبي: (قال مجاهد: العروة الإيمان، وقال السدي: الإسلام . وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد ابن جبير والضحاك: لا إله إلا الله، وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد)[٧].

---

[١] رواه الطبراني (١٩/ ٢٠٠) رقم (٤٤٨) وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٣٧) .

[٢] رواه البيهقي في الشعب (باب في الأمانات) (٣٣٤/٥) رقم (٥٣١٢) . وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠) .

[٣] رواه مسلم كتاب الجنة (باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت) (٢٢٠٦/٤) .

[٤] تفسير ابن كثير (٢٩٩/٤) .

[٥] تفسير ابن كثير (٢٥١/١) .

[٦] تفسير القرطبي (٦٧/١٠) .

[٧] تفسير القرطبي (١٨٣/٣) .

٣ ـ الهداية إلى أحسن الدين: قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَمُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء:١٢٥] .

قال الحافظ ابن كثير: (قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أخلص العمل لربه ﷻ فعمل إيماناً واحتساباً، ﴿ وَهُوَمُحْسِنٌ ﴾ أي اتّبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس ، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ، ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين ﴿ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [الأحقاف: ١٦] الآية)[1].

٤ ـ الرحمة من الله: قال ﷻ: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦] .

قال الإمام القرطبي: (قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.. الرحمة والرُّحم واحد، وهي بمعنى العفو والغفران، قاله الزجاج واختاره النحاس ... وقيل: أراد بالرحمة الإحسان .. ذكره الجوهري . وقيل: أراد بالرحمة هنا المطر، قاله الأخفش)[2].

قال الحافظ ابن كثير: ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يتّبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦] الآية .. وقال مطر الورّاق: استنجزوا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين رواه ابن أبي حاتم)[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة لأنها إحسان من الله ﷻ أرحم الراحمين، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان، لأن الجزاء من جنس العمل، وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته ...)[4].

---

[1] تفسير ابن كثير (٥٧٢/١) .

[2] تفسير القرطبي (١٤٥/٧) .

[3] تفسير ابن كثير (٢٣١/٢) .

[4] مجموع الفتاوى (٢٧/١٥ـ ٢٨) .

٥ ـ **البشرى:** قال ﷻ: ﴿وهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف:١٢] . وقال ﷻ: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج:٣٧] .

قال الإمام القرطبي: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ روي أنها نزلت في الخلفاء الأربعة ... فأمّا ظاهر اللفظ فيقتضي العموم في كلّ محسن [1].

٦ـ **نيل محبة الله:** قال ﷻ: ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:١٩٥] . وقال ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤] .

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحبه، قال: فيحبّه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحبّ فلاناً فأحبوه، فيحبّه أهل السماء قال: ثم يوضع له القبول في الأرض . وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض)) [2].

٧ـ **رضوان الله:** قال ﷻ: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠] .

قال الحافظ ابن كثير: (يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدّ لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم)[3].

٨ـ **استحقاق معية الله:** قال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت:٦٩] . وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] .

قال الإمام القرطبي: (وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة) [4].

---

[1] تفسير القرطبي (٤٥/١٢) .

[2] رواه البخاري كتاب الأدب (باب المِقة من الله تعالى) (٤٧٦/١٠) الفتح، ومسلم كتاب البر والصلة (باب إذا أحب الله عبداً) (٢٠٣٠/٤) واللفظ له .

[3] تفسير ابن كثير (٣٩٨/٢) .

[4] تفسير القرطبي (٢٤٢/١٣) .

٩ـ النجاة من الكرب والشدّة: قال الله ﷻ عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ❖ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات:٧٥ ـ ٧٦] إلى أن قال: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:٨٠] . وقال ﷻ عن إبراهيم عليه السلام في قصة ذبحه لولده استجابة لأمر الله: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ❖ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:١٠٤ـ١٠٥] .

قال الإمام القرطبي: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي نجزيهم بالخلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة[١]. وقال الحافظ ابن كثير: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هكذا نصرف عمّن أطاعنا المكاره والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً[٢].

١٠ـ الذرية الصالحة: قال ﷻ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام:٨٤] .

١١ـ الحكم والعلم: قال ﷻ عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٢٢] . وقال ﷻ عن موسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص:١٤] .

قال الإمام الشوكاني: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الذي جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله وألقت ولدها في البحر وصدقت بوعد الله نجزي المحسنين على إحسانهم، والمراد العموم[٣].

١٢ـ النصر على الأعداء: قال الله ﷻ عن موسى وهارون: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ❖ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ❖ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾[الصافات:١١٤ ـ ١١٦] إلى أن قال: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:١٢١] .

١٣ـ الثناء الجميل والذكر الحسن: قال ﷻ عن نوح عليه السلام: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ [الصافات:٧٨] . وقال ﷻ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٨] . وقال ﷻ عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيهِمَا فِي الآخِرِينَ ﴾[الصافات:١١٩]

---

[١] تفسير القرطبي (٧١/١٥) .

[٢] تفسير ابن كثير (١٨/٤) .

[٣] فتح القدير (٢١٥/٤) .

وقال ﷻ عن إلياس عليه السلام: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ❖ سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ❖ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:١٢٩- ١٣١] .

قال الإمام القرطبي: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ أي على إبراهيم ثناء جميلاً في الأمم بعده، فما من أمة إلا تصلّي عليه وتحبّه[1]. وقال الحافظ ابن كثير: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيهِمَا فِي الآخِرِينَ ﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً، وثناء حسناً[2].

١٤ـ الأجر العظيم: قال ﷻ: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٧٢] وقال ﷻ: ﴿ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب:٢٩] .

١٥ـ مضاعفة الأجر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله))[3].

١٦ـ عدم إضاعة الأجر: قال ﷻ: ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود:١١٥] . وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف:٣٠] .

قال الإمام الشوكاني: ﴿ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوب الله منهم، أي لا نضيع ثوابهم فيها ومجازاتهم عليها[4].

١٧ـ رفع الحرج والعقوبة: قال ﷻ: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[المائدة:٩٣] . وقال ﷻ: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة:٩١] .

قال الإمام القرطبي: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ .. أي من طريق إلى العقوبة . وهذه الآية أصل في رفع العقاب عن كل محسن[5].

١٨ـ الأمن وعدم الخوف أوالحزن: قال ﷻ: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُو مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢] .

---

[1] تفسير القرطبي (١٥/٧٤) .

[2] تفسير ابن كثير (٤/٢٢) .

[3] رواه مسلم كتاب الإيمان (باب إذا همّ العبد بحسنة) (١/١١٨) .

[4] فتح القدير (٣/٤٩) .

[5] تفسير القرطبي (٨/١٤٥) .

فأهل الإحسان في أمن وأمان فلا يفزعون ولا يخافون، قال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ [النمل:٨٩] .

١٩ـ لهم ما يشاءون عند ربهم: قال ﷻ: ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر:٣٤] . قال الإمام القرطبي: ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي من النعيم في الجنة .. ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الثناء في الدنيا والثواب في الآخرة[1].

٢٠ـ النجاة من النار: قال ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[الأنبياء:١٠١] قال الحافظ ابن كثير: (فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجّاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب)[2].

٢١ـ دخول الجنة: قال ﷻ عن المتقين: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ ❖ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ❖ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ❖ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المرسلات:٤١ ـ ٤٤] . وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ❖ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذريات:١٥- ١٦] . وقال ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم:٣١] .

٢٢ـ الزيادة: قال ﷻ: ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:٥٨] . قال البخاري: ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ رغداً: واسعٌ كثيرٌ[3].

هذه زيادة الدنيا، وأما زيادة الجنة فقال ﷻ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق:٣٥] .

وأكد الله تعالى أن لأهل الإحسان مزيد الفضل من الله فقال ﷻ: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس:٢٦] فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله يوم القيامة .

إن رؤية الله ﷻ في الآخرة ثابتة بنصوص الكتاب والسنّة وأقوال أهل العلم: قال الإمام الطحاوي: (والرؤية حقّ لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربّنا: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ❖ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢ ـ ٢٣] إلى أن قال: (المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية،وهو قول باطل مردود بالكتاب

---

[1] تفسير القرطبي (١٦٧/١٥) .

[2] تفسير ابن كثير (٢٠٧/٣) .

[3] صحيح البخاري كتاب التفسير (باب وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها) (١٤/٨) الفتح .

والسنة . وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنّة والجماعة)[1].

فمن الآيات الدّالة على هذه الرؤية: قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ❖ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] . وقوله عن الكفّار: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥] .

ومن الأحاديث الدّالة على رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة:

عن عبد الله بن قيس ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن))[2]. وعن صهيب ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ . ثم تلا هذه الآية ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾))[3].

أمّا المناسبة بين الإحسان ورؤية الله فهي: أن الإنسان الذي آمن بالله وخشيه بالغيب دون أن يراه، وأحسن عبادته، فلا بد أن يكون الجزاء عظيماً، لذلك يكرم الله المحسنين بهذه النعمة ألا وهي النظر إلى وجه الله يوم القيامة . نسأل الله أن يمتّعنا بالنظر إلى وجهه الكريم، وأن لا يجعلنا من الذين هم عن ربهم محجوبون .

وفي الختام: إن الإحسان أو الإساءة عائد إلى نفس الإنسان، قال ﷻ: ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء:٧] . فمن اهتدى فلنفسه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس:١٠٨] .

والله غني عن عباده: ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨] . وعن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .

---

[1] شرح العقيدة الطحاوية (١٤٣ – ١٤٤) .

[2] رواه البخاري كتاب التوحيد (باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة ﴾) (٤٣٣/١٣) الفتح، ومسلم كتاب الإيمان (باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم) (١٦٣/١) .

[3] رواه مسلم كتاب الإيمان (باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم) (١٦٣/١) .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ... يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلاّ نفسه))[1].

فاحرص على الإحسان قبل فوات الأوان، قبل أن تبوء بالخيبة والهوان والخسران، فتكون من النادمين .

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، ونسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين .



[1] رواه مسلم كتاب البر والصلة (باب تحريم الظلم) (١٩٩٤/٤ـ ١٩٩٥) .



الزنا
أضراره ـ أسبابه ـ علاجه

فضيلة الشيخ الدكتور سعد بن عبد الله البريك *

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ،

فقد بعث الله نبيه محمداً $ بشريعة متضمنة لمعاني الفضيلة كلها ، آمرة بمعالي الأمور وكريمها ، محذرة من سفاسفها وحطيطها. شريعة جاءت بكل ما يجمِّل العبد ويزينه ، ونهت عن كل ما يشينه ويدنسه . عن سهل بن سعد ﵁ قال: قال رسول الله $: ((إن الله كريم يحب الكرماء ، يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها))[1]. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة أبي سفيان مع قيصر ، قال أبو سفيان ﵁: (ويأمرنا ـ أي النبي $ ـ أن نعبد الله وحده لا شريك له ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدقة **والعفاف** والوفاء بالعهد وأداء الأمانة)[2].

لقد دعا الإسلام إلى العفة التي تضبط سلوك الإنسان عن الانحراف إلى مهاوي الرذيلة والانحطاط ، وتحفظ إرادته وشهوته عن الانخراط في الزلل وعدم الانضباط . عفة تتجلى فيها مظاهر الكرامة الإنسانية ، وتبدو فيها الطهارة والنزاهة الإيمانية . عفاف يمتزج بتحقيق المروءة والعزة ، فتقوى النفوس على التمسك بالأفعال الجميلة والآداب الفاضلة ، التي تحمل مراعاتها على الوقوف عند محاسن العادات ، وجميل الصفات ، والترفع عن المحقرات والدنيات ، وحينئذ يصبح المسلم المتعفف قوي الإرادة ، لا ينقاد صاغراً لشهوة ،

---

* داعية إسلامي ، وخطيب وإمام مسجد بالرياض ، له عدد من المحاضرات والندوات ، زار عدداً كبيراً من دول العالم الإسلامي وأوروبا في الدعوة إلى الله ، وله مشاركات في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية .

[1] رواه الطبراني وصححه الحاكم والألباني رحمه الله . السلسلة الصحيحة (١٣٧٨) .

[2] أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي (٧) ومسلم في الجهاد والسير (١١٨٥) .

ولا يستسلم للذة محرمة، بل هو مرتق في سماء الفضيلة، متباعد عن حضيض الرذيلة، واقف بشهواته عند الحد الذي خلقت من أجله، وفق المنظور الشرعي، والمفهوم الأخلاقي .

حكم الزنا في الإسلام:

لهذا كله حرم الإسلام الزنا، وامتدح الله جل وعلا الحافظين فروجهم والحافظات، وجعل ذلك من سمات الفلاح، وعلامات الفوز والنجاح فقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٧] . وعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال $: ((من يضمن لي مابين رجليه وما بين لحييه أضمن له الجنة))[١] . وعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: قال $: ((إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت))[٢] .

إن المتأمل في حال البشرية اليوم يتجلى له عظم محاسن هذا الدين، وسمو تعاليمه، في زمن فقد فيه العالَم العفاف وسادت فيه الإباحية المطلقة، لا يعرف المرء شرفاً، ولا يقيم للعرض وزناً، أخلا قٌ بهيمية، وممارسات فاضحة لا تعرف عزة وشهامة، ولا تتصف بمروءة وكرامة، إطلاق للشهوات، واستباحة للأعراض، وضياع للحياء والأذواق، لا غيرة على ذات محارم، ولا اشمئزاز من فاحشة وإجرام، فماذا جنت إباحية الغرب التي تركت العفاف ظهرياً، ونسفت الطهارة والحياء نسفاً جلياً ؟ . لقد جرَّت شروراً لا نهاية لها، وأضراراً لا حدَّ لمقدارها، وفساداً لا تقف جرائمه عند حد، ولا تنتهي آثاره السيئة ونتائجه القبيحة إلى غاية . آلام متنوعة، غموم واقعة، هموم مستطيرة .

الأضرار الناتجة عن الزنا:

ما استجلبت الأمراض المدمرة بمثل الزنا، كما جاء في الحديث أن النبي $ أقبل على المهاجرين يوماً فقال: ((يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن)) فذكر منها: ((ولم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا

---

[١] أخرجه البخاري في كتاب الرقاق (٦٤٧٤) .

[٢] رواه أحمد وقال الألباني : حسن لغيره .(انظر صحيح الترغيب ١٩٣٢) .

فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم))[1]. واسمعوا إلى هذه الأرقام المذهلة عن ضحايا مرض واحد فقط وهو الإيدز: حصد فيروس الإيدز ما بين عامي (١٩٨١ ـ ٢٠٠١) من الميلاد، ٢٢ مليون إنساناً، وفي عام (٢٠٠١) فقط أصيب بالفيروس ٥,٣ ملايين شخصاً، أي بمعدل (١٤٥٠٠) شخص يومياً، ويبلغ عدد المصابين في العالم منذ اكتشافه (٣٦) مليون شخصاً منهم ما بين (٨٠٠) ألف و(٩٠٠) ألف في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي الهند (٣,٧) مليون إنساناً، ويتوقع أن يصل العدد في الصين في عام (٢٠٠٥) إلى (٦) ملايين شخصاً . [مجلة نيوزويك العدد (٥٣)، نقلاً عن (العلم في عام) لحسن قطامش (١١٦ ـ ١١٧)] .

وفي إفريقيا يبلغ عدد المصابين (٢٥) مليون شخص، وفي سبعة بلدان واقعة في الجنوب الإفريقي يحمل هذا الفيروس واحد على الأقل من كل خمسة أشخاص بالغين، وتيتَّم أكثر من (١٣) مليون طفل بسبب الإيدز ويتوقع أن يصل الرقم إلى (٣٠) مليوناً قبل نهاية هذا العقد . [دورة الأمم المتحدة المعنية بفيروس الإيدز ٢٠٠١، نقلاً عن المصدر السابق (١١٧)] .

هذه الأرقام المخيفة تفسر لنا لماذا جاءت الشريعة بأوامر جازمة، وتوجيهات قاطعة، بحفظ الفروج عن الحرام وصيانتها عن الرذيلة والآثام . فحفظ الفروج عن الفواحش مما تزكو به النفوس، وتسلم به المجتمعات، ويحفظ به الأمن، وتصان به الأعراض . وما كشفت كربات الدنيا والآخرة بمثل العفة، كما في قصة الذين انطبق عليهم الغار، فاستصرخ كل منهم ربه بعمل عمله، وكان من أعمال أحدهم أنه راود يوماً امرأة في الحرام، فلما وقع منها موقع الرجل من امرأته قالت له: يا عبد الله اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فخاف الله وأقلع عنها، وكان هذا العمل سبباً في رفع جزء من الصخرة عنهم [2].

الزنا فاحشة كبرى وسيئة عظمى، لما يترتب عليها اختلاط الأنساب وتوريث الأجانب، وانتهاك الأعراض، وفقر الأغنياء، فهو من أكبر الفواحش وأعظم الموبقات، تلي في المرتبة الشرك وقتل النفس بغير حق، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ

[1] رواه ابن ماجه والدارمي وحسنه الألباني .

[2] رواه البخاري ومسلم .

وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ . في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم ؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت ثم أي ؟ قال: أن تزني بحليلة جارك)) .

الزنا فاحشة تسلب صاحبها الإيمان حتى يقلع عنها، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)) [1]. وتمنع إجابة الدعاء . عن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((تفتح أبواب السماء نصف الليل، فينادي مناد: هل من داع فيستجاب له، هل من سائل فيعطى، هل من مكروب فيفرج عنه ؟ فلا يبقى مسلم يدعو بدعوة إلا استجاب الله ﷻ له، إلا زانية تسعى بفرجها أو عشَّاراً))[2].

قال ابن القيم رحمه الله: وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب ... فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين: الزنا واللواط، ولهما خاصية في إبعاد القلب عن الله جل وعلا، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُد من الله الطيب الذي لا يصعد إليه إلا الطيب .اهـ . وما ذاك إلا لأنه من أقبح القبائح يبدد الأموال وينتهك الأعراض ويقتل الذرية ويهلك الحرث والنسل، عاره يهدم البيوت ويطأطئ عالي الرؤوس، ويسود الوجوه البيضاء، ويخرس ألسنة البلغاء، ويهبط بالعزيز إلى هاوية الذل والحقارة والازدراء، هاوية ما لها من قرار، ينزع ثوب الجاه مهما اتسع، ويخفض عالي الذكر مهما علا، إنه لطخة سوداء إذا لحقت بتاريخ أسرة غبَّرت صحائفها، إنه جرم فظيع، وعمل شنيع، وذنب عظيم، وانحراف خلقي، وانحطاط أدبي، إنه العار الذي يطول حتى تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل، وبانتشاره تغلق أبواب الحلال ويكثر اللقطاء وتنشأ طبقات بلا هوية، طبقات شاذة حاقدة على المجتمع لا تعرف العطف ولا العلاقات الأسرية، فيعم الفساد ويسقط المجتمع، يجمع خلال الشر

---

[1] رواه البخاري ومسلم وأبو داود .

[2] رواه الطبراني واللفظ له وهو صحيح .

كلها من الغدر والكذب والخيانة وينزع الحياء ويذهب الورع والمروءة ويطمس نور القلب ويجلب غضب الرب، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء (٣١-٣٢)] .

ولهذا فقد خافه النبي ﷺ على أمته فعن عبد الله بن زيد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يا نعايا العرب ـ يريد أن العرب قد هلكت ـ يا نعايا العرب: إن أخوف ما أخاف عليكم الزنا والشهوة الخفية))[1]. يقول ابن القيم رحمه الله: ويكفي في قبح الزنى أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أبشع وأفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله، والزنى يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة، فلا تجد زانياً معه ورع، ولا وفاء بعهد ولا صدق في حديث ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله، فالغدر، والكذب، والخيانة، وقلة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنفة للحُرُم، وذهاب الغيرة من القلب، من شعبه وموجباته، ومن موجباته غضب الرب والفقر اللازم، ومنها أنه يسلبه اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها، كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن. ومنها أن يجرئه على قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وكسب الحرام وظلم الخلق وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسراً إلى سفك الدماء، وربما استعان عليه بالسحر والشرك من حيث يدري أو لا يدري، فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها، ويتولد عنها أنواع أخرى من المعاصي بعدها . فهي محفوظة بجند من المعاصي قبلها وبعدها، وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عز على الناصحين استنقاذه، وأعيا الأطباء دواؤه فأسيرها لا يُفدى، وقتيله لا يُودى، وقد وكلها الله بزوال النعيم، فإذا ابتلى بها عبد فليودع نعم الله فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال، هذا في الدنيا .

وأما في الآخرة فعذاب أشد وأبقى، تذهل له النفوس، وتتقطع له الأفئدة، وتشيب من هوله الرؤوس، عذاب شديد وموجع وأليم ومهين . ففي صحيح البخاري رحمه الله في حديث منام النبي ﷺ الذي جاء فيه: ((أنه جاءه جبريل وميكائيل قال: فانطلقنا فأتينا على مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع، فيه لغط وأصوات قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه

[1] رواه الطبراني وحسنه الألباني . (صحيح الترغيب والترهيب ٢/٦١٠) .

رجال ونساء عراة، فإذا هم يأتيهم لهاب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضئوا ـ أي صاحوا من شدة حره ـ فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الزناة والزواني ـ يعني من الرجال والنساء ـ فهذا عذابهم إلى يوم القيامة)) . وعن عطاء في تفسير قوله تعالى عن جهنم: ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ . قال أشد تلك الأبواب غماً وحراً وكرباً، وأنتنها ريحاً، للزناة الذين ركبوا الزنا . وورد في الأثر: اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال، ثلاثاً في الدنيا، وثلاثاً في الآخرة، فأما التي في الدنيا: فذهاب بهاء الوجه، وقصر العمر، ودوام الفقر . وأما التي في الآخرة: فسخط الله تبارك وتعالى، وسوء الحساب، والعذاب بالنار .

هذه الكبيرة ترفضها الفطر والعقول السليمة حتى الحيوان والطير يأنفون منها . ذكر البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي أنه رأى في الجاهلية قرداً يزني بقردة فاجتمعت القرود عليه حتى رجمته . وقال ابن تيمية: وحدثني بعض الشيوخ الصادقين أنه رأى نوعاً من الطير قد باض، فأخذ الناس بيضه وجاؤوا ببيض جنس آخر من الطير، فلما انفقس البيض خرجت الفراخ من غير الجنس، فجعل الذكر يطلب جنسه حتى اجتمع منهم عدد، فما زالوا بالأنثى حتى قتلوها . ثم قال الشيخ: ومثل هذا معروف في عادة البهائم[1].

ولعظم جرم الزنا كان النبي ﷺ يبايع النساء على عدم مقارفته، كما يبابعهن على عدم الإشراك بالله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ... ﴾ الآية . ولهذا استغربت هند بنت عتبة بن ربيعة رضي الله عنها، حين بايعها النبي ﷺ فكان فيما بايعها، على عدم الزنى، وقالت: أو تزني الحرة؟ وكان الزنى معروفاً عندهم في الإماء[2].

الزنا ضرر على الإنسان في نفسه، وضرر على المزني بها، وضرر على المجتمع بأسره، فالزاني لم يكتف بما أباح الله له، بل تعدى حدود الله وجاوزها من الحلال إلى الحرام فإن كان محصناً فقد أهدر دمه بفعله هذا . عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا في

---

[1] الفتاوى (١٥/ ١٤٧) .

[2] الفتاوى (١٥/١٤٦) .

إحدى ثلاث: زناً بعد إحصان، فإنه يرجم، ورجل خرج محارباً لله ورسوله فإنه يقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض، أو يقتل نفساً فيقتل بها))[1].

ثم المزني بها فقد ظلمها وقضى عليها وعلى كرامتها ولوث سمعتها وأساء إليها وإلى أهلها، وإذا حملت من الزنا فربما قتلت ولدها فجمعت على نفسها مصيبتين، وحاربت الله بكبيرتين: الزنا وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، وربما ألقته على الطريق حياً ليست بسائلة عنه ولا متحننة عليه، فهو نطفة وضعت في غير موضعها، وإن أبقته أدخلت على زوجها وأهله من ليس منهم فيختلط بهم ويرثهم . ثم هو سبب إيقاع العداوة والبغضاء، فربما انتُقِم منه فتشتعل نار الفتنة بينه وبين أهل تلك الفتاة، فصار جريمة عظيمة يتعدى ضررها وشرها . ثم هو فاحشة تضر بالمجتمع بأسره، وأي ضرر أعظم من إيجاد طبقة من البشر لا يعرفون الأب أو الأم، لا ينتسبون لأحد، يعيش أحدهم كلاً على مجتمعه ليس هناك من يربيه أو ينفق عليه أو يرعاه .

وإذا انتشر أولاد الزنا في الأمة كان ذلك مؤذناً بنزول العقوبة عليها . عن ميمونة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب))[2].

قال بعض أهل العلم: كم في الزنا من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم، ومن خاصيته أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه، وثوب المقت بين الناس، ويشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملك، ويقربه من الشيطان، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدة الزنا، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ الرجل أن امرأته أو حرمته قتلت، كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت . اهـ .

لقد مدح الله جل وعلا المؤمنين بعفتهم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ... ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴾ . فلا يتفاضل الناس في مراقي الشرف

[1] رواه أبو داود والنسائي وهو صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ٢/٦٠٩).
[2] رواه أحمد وحسنه الألباني . (صحيح الترغيب والترهيب ٢/٦١٤).

والمجد، إلا بمقدار ما تحمله نفوسهم من قوة الإرادة . فالرجل ذو العزيمة يتجلى فيه مظهر الكرامة الإنسانية مطبوعاً على أجمل صورة من الكمال والنبل، وبضعف هذه العزيمة ينزل من سماء الإنسانية العالي ليكون أشبه بالحيوان ساقطاً مهملاً . فقيمة المرء إباؤه وعزيمته، وميزانه نزاهته وسمعته، وشرفه في طهارة عرضه وبياض صفحته ونقاء ذيله .

أسباب الزنا: الزنا له أسباب كثيرة فمنها:

١ـ ضعف الإيمان واليقين، فمن ضعف إيمانه نسي الوعيد وأمن العقوبة، وتباعد الفضيحة، وفي الحديث: ((من زنى خرج منه الإيمان، فإن تاب تاب الله عليه))[1]. ومن صفات المؤمنين التي ذكرها القرآن الكريم أنهم لا يزنون قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴾.

٢ـ النظرة المحرمة، سهم من سهام الشيطان، تورد صاحبها موارد الهلكة، ولهذا قال تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ﴾ . ربط تعالى بين غض البصر وحفظ الفرج في الآيات، وبدأ بالغض قبل حفظ الفرج لأن البصر رائد القلب، كما أن الحمى رائد الموت، كما قال الشاعر:

ألم تر أن العين للقلب رائد   فما تألف العينان فالقلب إلف

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فالعينان تزنيان، وزناهما النظر...)) الحديث . فاتقوا زنا العينين، قال أهل العلم: لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية ولا المرأة إلى الرجل الأجنبي عنها فإن علاقتها به كعلاقته بها، وقصدها منه كقصده منها [2]. فكم نظرة محرمة قادت إلى نظرات أخرى، وقادت النظرات إلى همسات، ثم موعد فلقاء، ومعظم النار من مستصغر الشرر:

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها   فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها   في أعين الغيد موقوف على الخطر

---

[1] حديث حسن انظر: صحيح الجامع (٥/٢٩٦) .

[2] تفسير القرطبي (١٢/٢٢٧) .

يسر مقلتـــه مـــا ضر مهجتـــه لا مرحبـــاً بسرور جـــاء بالضرر

قال الإمام القرطبي رحمه الله: ولقد كره الشعبي أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته، وزمانه خير من زماننا هذا، وحرام على الرجل النظر إلى ذات محرمه نظرة شهوة يرددها[1]. فإذا كان هذا في القرن السابع الهجري فماذا لو رأى القرطبي زماننا نحن، وماذا عساه يقول عن كلام الشعبي؟ وإذا كان هذا النظر إلى المحارم فكيف يكون الحال في النظر إلى الأجنبيات أو إلى الصور الخليعة أو المسلسلات الهابطة التي تختلط فيها النساء بالرجال ؟.

٣ـ ومن الأسباب الداعية للزنا: كثرة خروج المرأة وتبرج النساء، وتكسرهن في المشية، وإلانتهن القول، فهذه وتلك فواتح للشر تطمع الذي في قلبه مرض . وتفتن المستمسك إلا أن يعتصم بالله، وقد نهى الله نساء المؤمنين عن ذلك كله حماية لأعراضهن وصوناً لهن عن مواطن الريب، قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ويقول تعالى مخاطباً نساء النبي ﷺ ــ وغيرهن من باب أولى ــ: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ .

٤ـ ومن دواعي الفاحشة استقدام الخدم والسائقين، تلك المصيبة التي عمت وطمت، وامتلأت بها البيوت لحاجة ولغير حاجة، واعتاد الرجال على الدخول مع النساء المستخدمات وكأنهن من ذوات المحارم وربما تطور الأمر عند الآخرين فجعلها تستقبل الزائرين وتقدم الخدمة للآخرين . وليس أقل من ذلك: إتاحة الفرصة للسائقين الأجانب بدخول البيوت دون رقيب، ولقد شهد الواقع بحصول كثير من الجرائم والفواحش من وراء استقدام السائقين والخدم، هذه الجرائم تجعل اللبيب يحتاط ويحذر فيمن يجلبه من هؤلاء وتجعله لا يجلبهم إلا للضرورة، ولكن التقليد الأبله، والثقة العمياء ربما حجبت الرؤية عند قوم وأصمت آذان آخرين .

٥ـ ويبقى سبب مهم من الأسباب الداعية لفاحشة الزنا، وهو سماع الغناء والعكوف على مشاهدة المسلسلات الهابطة والنظر إلى الأفلام الخليعة التي تبثها وسائل الإعلام

---

[1] المصدر السابق .

بمختلف قنواتها، إن هذه المشاهد المؤذية تروض البنين والبنات على الفحش، وتذهب عنهم ماء الحياء، وإذا نزع الحياء من أمة فقد تودع منها .

٦ـ وثمة أسباب أخرى لا تقل أهمية، فالسفر للبلاد الإباحية دونما حاجة، والتردد كثيراً على البلاد التي ينتشر فيها الفساد وتعلن الرذيلة أسباب جالبة لوقوع الزائر في شراك الزنا، وإن لم يقصدها، وضعف رقابة الآباء والأمهات على البنين والبنات وغلاء المهور .

كيف عالج الإسلام الزنا:

إن الإسلام لا يعوّل على سلاح التعزير المحض لحفظ المجتمع من خطر الزنا وشؤمه، بل جاء بالتدابير الإصلاحية والوقائية على نطاق واسع وجعل التعزير آخر حل لتطهير المجتمع من الذين يفسدون أعراض الناس . ولأجل ذلك فقد عني بإصلاح الإنسان قبل كل شيء . وحرص على أن يعمر قلبه بخشية الله وخوفه ومراقبته في السر والعلن، وحبب إليه طاعة الله ورسوله التي هي أول مقتضيات الإيمان، ثم نبهه ولا يزال ينبهه مرة بعد أخرى على أن الزنا والفاحشة من كبائر الذنوب الموجبة للعذاب الأليم في الآخرة، كما في عدة مواضع من القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، ثم يرشده بعد ذلك على ما يعينه على الاستعفاف، فأباح له الزواج المشروع بمثنى وثلاث ورباع، وهيأ للزوج سهولة طلاق زوجته، وللزوجة سهولة مخالعة زوجها إذا كان لم يحصل بينهما توافق .

إن تقوية الإيمان في النفوس وغض الأبصار عن الحرام ولزوم الحجاب الشرعي للمرأة، وعدم اختلاطها بالرجال أو خلوتها بهم، والوعي بمخاطر سفر المرأة دون محرم، وعدم التهاون بذلك والتنبيه لمخاطر الهاتف والإعراض عن السفهاء، وعدم استقدام السائقين والخدم إلا لضرورة وبالمواصفات الشرعية، فالسائق مع زوجته، والخادمة مع زوجها، والاقتصار على المسلمين دون غيرهم، والحذر من وسائل الإعلام وما تبثه من برامج ساقطة وعدم الانخداع بدعوات المغرضين، أو الاستجابة لأصوات المنافقين، وتيسير المهور، ومراقبة البيوت، وبذل مزيد من الإشراف والاهتمام بالبنين والبنات، والاقتصاد في السفر للخارج، كل هذه وسائل ناجحة بإذن الله وطرق مهمة لقطع دابر الفتنة .

وسبب آخر وهو أن النبي ﷺ أمر الشباب بالزواج مع القدرة فقال: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)) .

وقد وعد الله من تعفف عن الحرام أن يهيئ له سبيل الزواج وييسره عليه فقال: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وتوعدهم بالجنة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((يا فتيان قريش احفظوا فروجكم لا تزنوا، ألا من حفظ فرجه فله الجنة))[١] .

ومما يعين على ترك الزنا معرفة أن الزنا دين والوفاء في عرض الزاني، وقد قيل قديماً دقة بدقة ولو زدت زاد السقا. قال الشافعي رحمه الله:

إن الزنا دين إذا أقرضتــــه كان الوفاء من أهل بيتك فاعلم
من يزن يزنَ به ولو بجداره إن كنت يـــا هذا لبيبــاً فافهـم

كان أحد الملوك القدماء قد قبل امرأة في صغره فلما سمع أنه يؤخذ بمثله من ذرية الزاني أراد التجربة فأرسل ابنته مع امرأة فقيرة وقد تنكرت وكانت فائقة الجمال وأمرها أن تكشف وجهها وتمشي بين الناس وتتعرض لهم فما مرت بها على أحد إلا أطرق رأسه عنها حياءً وخجلاً، حتى إذا كانت في طريق رجعتها وقربت من قصر أبيها لتدخل، أمسكها إنسان وقبلها ثم ذهب عنها، فأدخلتها عليه فسألها عما وقع فذكرت له القصة فسجد لله شكراً وقال: الحمد لله ما وقع مني في عمري قط إلا قبلة لامرأة وقد قوضيت بها .

من هتك عرض أخيه هتك الله عرضه، قال ﷺ: ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته))[٢]. فكما تدين تدان وكيفما تكن يكن الله لك[٣].

ويبقى بعد ذلك دور الجهات المسؤولة في تنفيذ الأحكام، فلا تأخذهم لومة لائم في تطبيق الحدود وإقامة شرع الله كما أمر، فالله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وبعض الناس يخيفه عذاب الدنيا ويخشى العار من الخلق أكثر من خوفه من عذاب الله، وخشيته من الفضيحة في الدنيا أكثر من خشيته من الفضيحة الكبرى على رؤوس الأشهاد وهؤلاء لا تردعهم إلا القوة، ولا يصلح معهم الضعف والمسامحة، والله تعالى وهو

---

[١] رواه الحاكم والبيهقي وهو حديث حسن .
[٢] رواه الترمذي وأحمد وأبو داود وهو حديث حسن .
[٣] الزنا وآثاره عبد الحميد تركستاني (٢) .

أرحم الراحمين يقول في تطبيق الحدود على الزناة: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلوب، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم الداخلة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض، فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه، وإن كان لا يريد إلا الخير إذ هو في ذلك جاهل أحمق، وقال: ومن الناس من تأخذه الرأفة بهم لمشاركته لهم في ذلك المرض وذوقه ما ذاقوا من قوة الشهوة وبرودة القلب والدياثة فيترك ما أمر الله به من العقوبة، وهو في ذلك من أظلم الناس وأديثهم في حق نفسه ونظائره، وهو بمنزلة جماعة من المرضى قد وصف لهم الطبيب ما ينفعهم فوجد كبيرهم مرارته فترك شربه ونهى عن سقيه الباقين[١].

لقد وضعت الشريعة لجريمة الزنا جزاءً حاسماً وحذَّرت من الرأفة بالفاعلين، وزجرت عن تعطيل الحد أو الترفق في إقامته؛ بل أمرت بإقامته في محضر مشهود في طائفةٍ من المؤمنين ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولقد علم الله والمؤمنون أن الدماء لا تحفظ، والأموال لا تصان، والأعراض لا تحترم، والبلاد لا تصلح، والعباد لا تستقيم، والأمن لا يسود إلا بإقامة الحدود وقطع الأكف الآثمة وسد الأفواه الأفَّاكة. لقد شرعت حدود الله لتحفظ النفوس من التعديات الآثمة والنزوات الطائشة . أليس من السر الذي يلفت نظر العقلاء أن دين الإسلام وهو دين الرحمة والرأفة حتى مع الحيوان وقف هذا الموقف الشديد مع هؤلاء الزناة والزواني ؟ . أليس هذا الدين الذي يحب الستر ويدعو إليه يقيم هذا الحد على مشهد من المؤمنين ؟ .

كل هذا لأن الرأفة بالزناة قسوة على المجتمع، وقسوة على الآداب الإنسانية، وقسوة على الضمير البشري، بل قسوة على حقوق الإنسان . إن القسوة في الحد أرأف ثم أرأف بالمجتمع مما ينتظره من شيوع الفواحش لتفسد الفطرة وترتكس في حمأة الرذيلة ويعيش في بيئة الأدواء والأمراض .

---

[١] فتاوى ابن تيمية (١٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩١) .



نزع القاضي ملكية المدينين وبيعها بالمزاد العلنى

د. سعد الدين بن محمد الكبي ❖

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ،

فقد كثر السؤال عن حكم شراء السلع التي تبيعها الدولة وتعود ملكيتها إلى المحكومين بقضايا الديون، هل يجوز الشراء منها أو لا يجوز باعتبار أن حق الآخرين متعلق بها .

صورة المسألة:

وصورة المسألة، أن المدين بقرض، أو أجرة السكن أو المحل التجاري، أو من له على آخر قروض تجارية، أو غير ذلك من صور القروض أو الحقوق المالية الحالّة المستحقة على الآخرين، يحل وقت سدادها ويمتنع مَنْ عليه الحق من الدفع، وقد يكون مماطلاً، فلا يجد صاحب الحق طريقاً للوصول إلى حقه إلا عن طريق القضاء لأن له صفة الإلزام، فإذا حكمت المحكمة ببيع بعض ممتلكات مَنْ عليه الحق لسداد دينه، فهل يكون ذلك من نزع ملكية المالك بغير حق، أو أنه من الإكراه بحق لسداد الدَّين ؟ وهل هناك شروط في مسائل نزع القضاء ـ أو الحاكم ـ ملكية من عليه الحق لسداد ديونه ؟

لبيان ذلك، بحثت المسألة في خمسة فصول وخاتمة، وسميت البحث:

(نزع القاضي ملكية المدينين وبيعها بالمزاد العلني)

والله أسأل أن ينفع بهذا البحث فإنه ولي ذلك والقادر عليه .

❖ مدير معهد الإمام البخاري للشريعة الإسلامية في عكار شمال لبنان، والمدير المسؤول عن مجلة البحث العلمي الإسلامي، له عدة مؤلفات منها: المعاملات المالية المعاصرة في ضوء الإسلام ـ رسالة ماجستير ـ والتعليقات الزهية على الدرر البهية للإمام الشوكاني، وغيرها .

الفصل الأول

حق الملكية وأسبابها وشروط نقلها

المبحث الأول: تعريف الملكية وبيانها:

الملكية مأخوذة من الملك، والملك في اللغة: ما يُملك ويُتصرف فيه[١]. وفي التنزيل العزيز: ﴿ ولله ملك السماوات والأرض ﴾ [سورة النور: ٤٢] .

وفي القاموس المحيط: ما احتواه قادراً على الاستبداد به[٢].

التعريف الشرعي: الملك: اختصاص بالشيء يمنع الغير منه، ويمكّن صاحبه من التصرف فيه ابتداءً إلا لمانع شرعي[٣].

ومنهم من عرَّفه بأنه (اختصاص حاجز شرعاً يسوّغ صاحبه التصرف إلا لمانع)[٤].

والمراد بكونه حاجزاً: أي يحجز غير المالك عن الانتفاع والتصرف دون إذن المالك[٥].

وذهب القرافي في تعريف الملك: بأنه تمكن الإنسان شرعاً، بنفسه أو بنيابة من الانتفاع بالعين أو بالمنفعة، ومن أخذ العوض عن العين أو المنفعة[٦].

الفرق بين الملك والتصرف: وقد بيّن القرافي رحمه الله، أن الملك غير التصرف، لأن المحجور عليه يملك ولا يتصرف، فقد يوجد التصرف بدون الملك، كالوصي، والوكيل، والحاكم، فإنهم يتصرفون ولا ملك لهم . وقد يوجد الملك ولا يوجد التصرف، كالصبيان، والمجانين، يملكون ولا يتصرفون . ويجتمع الملك والتصرف في حق البالغين الراشدين النافذين للكلمة الكاملين الأوصاف[٧].

الفرق بين الملك التام والملك الناقص:

الملك ينقسم إلى قسمين: تام، وناقص .

---

[١] المعجم الوسيط (٨٨٦) لمجموعة من المؤلفين، طبع المكتبة الإسلامية، استانبول .

[٢] القاموس المحيط للفيروز آبادي (١٢٣٢) مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

[٣] الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي (٥٧/٤) دار الفكر ـ دمشق .

[٤] انظر المدخل الفقهي العام، د. مصطفى أحمد الزرقاء (٣٣٣/١) دار القلم دمشق .

[٥] نفس المصدر .

[٦] الفروق للقرافي (٢٠٩/٣) عالم الكتب ـ بيروت .

[٧] نفس المصدر (٢٠٨/٣) .

١ـ الملك التام: هو ملك ذات الشيء والانتفاع به ـ أي العين والمنفعة ـ بحيث يثبت للمالك جميع الحقوق المشروعة . ومن أهم خصائص الملك التام: أنه ملك دائم لا يتقيد بزمان ما دامت العين قائمة، ويقبل النقل، إما بالبيع، أو الإرث، أو الوصية .

٢ـ الملك الناقص: هو ملك العين وحدها، أو ملك المنفعة وحدها، ويسمى ملك المنفعة: حق الانتفاع، ومنها: الإعارة والإجارة[١].

المبحث الثاني: أسباب الملكية:

الأسباب: جمع سبب، وهو الحبل، وما يُتوصل به إلى غيره[٢].

وتعود أسباب الملكية في الشريعة الإسلامية إلى أربعة أسباب هي:

١ـ إحراز المباحات: وهو المال الذي لم يدخل في ملك شخص معين، ولم يوجد مانع شرعي من تملكه، كالماء في منابعه، والكلأ والحطب والشجر في البراري غير المملوكة، وصيد البر والبحر .

ويشترط لتملك المباح شرطان:

أ ـ أن لا يكون قد سبق إلى إحراز المباح شخص آخر .

ب ـ قصد التملك[٣].

٢ـ العقود: كالبيع، والهبة، والوصية، ونحوها، وهذا السبب من أهم مصادر الملكية وأعمها وأكثرها وقوعاً في الحياة المدنية، لأنها تمثل النشاط الاقتصادي الذي يحقق حاجات الناس من طريق التعامل . ويدخل في العقود من حيث سببية الملك حالتان:

الأولى: العقود الجبرية التي تقوم السلطة القضائية بإجرائها مباشرة بالنيابة عمن تجب عليهم إذا امتنعوا من إجرائها، وذلك كبيع مال المدين جبراً عليه لأجل وفاء دينه[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (يجوز الإكراه على البيع بحق في مواضع، مثل بيع المال لقضاء الدين الواجب، والنفقة الواجبة)[٥].

---

[١] الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي (٤/٥٨ ـ ٦١) .

[٢] القاموس المحيط للفيروز آبادي (١٢٣) .

[٣] المدخل الفقهي العام، د. الزرقا (١/٣٣٥ ـ ٣٣٦) والفقه الإسلامي د. زحيلي (٤/٦٨) .

[٤] المدخل الفقهي العام، د. الزرقا (١/٣٣٨) والفقه الإسلامي، د. زحيلي (٤/٧٦) .

[٥] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/٧٧) جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد .

ومنها: بيع الحاكم للأموال المحتكرة عندما يضر بالناس احتكارها، ففي هذه الحالة تستند الملكية إلى عقد بيع صريح أجرته السلطة القضائية بالنيابة الجبرية عن المالك[١].

قال ابن تيمية رحمه الله: (إذا امتنع الناس من بيع ما يجب عليهم بيعه، فهنا يؤمرون بالواجب ويعاقبون على تركه، وكذلك من وجب عليه أن يبيع بثمن المثل فامتنع أن يبيع إلا بأكثر منه، فهنا يؤمر بما يجب عليه ويعاقب على تركه بلا ريب)[٢].

الثانية: نزع الملكية الجبري، وله صورتان:

أ ـ الشفعة وعرَّفها الفقهاء بأنها حق تملك قهري يثبت للشريك القديم على الشريك الحادث فيما يملك بمعاوضة، وسببها الاشتراك في شيء قبل قسمته[٣]. والأصل فيها حديث جابر ﷺ قال: ((قضى رسول الله ﷺ بالشفعة فيما لم يُقسم فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة))[٤].

ب ـ الاستملاك للصالح العام: كجار المسجد يجبر على البيع لتوسعة المسجد إذا احتيج إلى ذلك، أو لأجل توسيع الطريق إذا دعت حاجة الناس إلى توسيعه، وذلك بالقيمة التي يساويها العقار للمصلحة العامة[٥].

٣ـ الخَلَفية: وهي نوعان:

أ ـ خلفية شخص عن شخص وهي الإرث .

ب ـ خلفية شيء عن شيء وهي التضمين .

فالإرث: سبب جبري للتملك يتلقى به الوارث بحكم الشرع ما يتركه المورث من أموال التركة .

والتضمين: وهو إيجاب الضمان أو التعويض على من أتلف شيئاً لغيره أو غصبه منه فهلك أو فُقد، وكذا إذا ألحق بغيره ضرراً بجناية أو تسبب، ففي ذلك وأمثاله يجب عليه

---

[١] المدخل الفقهي العام، د. الزرقا (١/٣٣٨ ـ ٣٣٩) والفقه الإسلامي د. زحيلي (٤/٧٦) .

[٢] فتاوى ابن تيمية (٢٨/ ٩٥) .

[٣] انظر الإقناع للشربيني (٢/ ١٢٢) ومدونة الفقه المالكي، د. صادق الغرياني (٤/١٦١) والتعليقات الزهية على الدرر البهية للشوكاني (١١٥) .

[٤] رواه البخاري (٢٢١٣) .

[٥] المدخل الفقهي د. الزرقا (١/٣٣٩ ـ ٣٤٠) والفقه الإسلامي د. زحيلي (٤/٧٦) ومدونة الفقه المالكي د. الصادق الغرياني (٣/ ٢٢٦) .

ضمان ما أتلفه وتعويض الضرر الذي باشره أو تسبب به، وعندئذٍ يملّك المعوّض له ذلك العوض ملكاً مستنداً إلى سبب الخَلَفيَّة، لأن هذا العوض خلف عما تضرر فيه من مال أو منفعة، أو عضو. ويدخل في ذلك: الدية، وأرش الجنايات[١].

٤ـ التولد من المملوك: أي ما يتولد وينشأ من المملوك يكون مملوكاً لصاحب الأصل، سواء أكان بفعل المالك، أم بالطبيعة والخلقة، فثمرة الشجرة، وولد الحيوان، وصوف الغنم ولبنها، وأمثال ذلك كلها مملوكة لصاحب الأصل. وإذا تولد شيء من شيءٍ مشترك فهذا المتولد الحاصل يكون مشتركاً بنسبة حصص المالكين[٢].

المبحث الثالث: شروط نقل الملكية:

لقد اشترط الفقهاء شروطاً لنقل الملكية من مالك لآخر، وهذه الشروط منها ما يعود إلى العاقدين، ومنها ما يعود إلى العقد، ومنها ما يعود إلى المعقود عليه وهو السلعة، ولبيان ذلك من حيث الجملة، أفرده في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: شروط العاقد:

لقد اشترط الفقهاء في العاقد شروطاً وهي:

١ـ العقل، فلا يصح بيع المجنون، وصبي لا يعقل[٣].

٢ـ البلوغ، ويصح بيع المميز عند الحنفية والحنابلة إذا أذن له وليه[٤].

٣ـ الرضا، فلا ينعقد بيع المكره بغير حق عند الجمهور، حيث أن الإكراه نوعان:

أـ إكراه بحق ب ـ إكراه بغير حق.

فالمكره بغير حق: هو الذي أجبر بالجبر الحرام، فهذا لا يلزمه البيع، أما الجبر الشرعي، كأن يجبره القاضي أو الحاكم على بيع ماله لسداد دينه فيلزمه[٥].

وذهب الحنفية إلى أن بيع المكره ينعقد فاسداً، فإن أجازه حال الاختيار فإنه يصح ويزول الفساد[٦].

---

[١] المدخل الفقهي د. الزرقا (٣٤١/١ ـ ٣٤٢) والفقه الإسلامي د. زحيلي (٧٦/٤ ـ ٧٧).

[٢] نفس المصدر (٣٤٣/١) و(٧٧/٤).

[٣] حاشية ابن عابدين (٤/ ٥٣٨) والخرشي على مختصر خليل (٥/ ٨ ـ ٩) والمجموع شرح المهذب (١٨١/٩ ـ ١٨٢) والكافي لابن قدامة المقدسي (٤/٢).

[٤] المبسوط للسرخسي (٢٣/٢٥) والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٢٦٧/٤).

[٥] الخرشي على مختصر خليل (٩/٥) والمجموع شرح المهذب (١٨٥/٩ـ١٨٦) والمقنع (٤/٢) ومنار السبيل لابن ضويان (٣٠٦/١و٣٠٧).

[٦] راجع حاشية ابن عابدين (٥٣٦/٤ ـ ٥٤١).

٤ـ الرشد: وقد اختلف الفقهاء في اشتراط الرشد في العاقد، فلم يشترطه الحنفية، واشترطه المالكية والشافعية والحنابلة[١]، لقوله تعالى: ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ [سورة النساء: ٦] ووجه الاستدلال بالآية: أن الله تبارك وتعالى علّق دفع الأموال إليهم ليستقلوا بالتصرف على شرط وهو الرشد، فدل على أنه شرط للتصرف.

المطلب الثاني: شروط العقد:

ويشترط لصحة العقد أن يقع بإيجاب وقبول في مجلس العقد[٢]، واختلفوا في بيع المعاطاة، وهو ما ليس فيه إيجاب وقبول، بل قبض بعد معرفة الثمن، فالمشهور من مذهب الحنفية جوازه في المحقرات، وهو ما ذهب إليه الكرخي[٣]. وفي حاشية ابن عابدين: أنه ينعقد في الخسيس والنفيس[٤]. وهو مذهب أحمد[٥].

وعند المالكية: لا يلزم العقد في بيع المعاطاة إلا بدفع الثمن[٦].

والمشهور في مذهب الشافعي عدم صحة بيع المعاطاة في قليل ولا كثير[٧].

الترجيح:

والراجح في بيع المعاطاة انعقاده إذا دلَّ على الرضا، لأن الله ذكر البيع في كتابه، وذكره رسوله ﷺ في سنته، وعمل الصحابة ﷺ بالتجارة، ولم يرد اشتراط اللفظ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (العقود تصح بكل ما دل على مقصودها من قول أو فعل، وهذا ما تدل عليه أصول الشريعة، وتعرفه القلوب، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿ وأحل الله البيع ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥] وقال تعالى: ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً

---

[١] الخرشي على مختصر خليل (٥/٨ ـ ٩) وحاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب (٢/١٩) لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، والإنصاف للمرداوي (٤/٢٦٧).

[٢] حاشية ابن عابدين (٤/٥٣٨) وحاشية علي العدوي على مختصر خليل (٥/٦) والمجموع شرح المهذب (٩/١٩٥ ـ ٢٠٠) والروض المربع لمنصور البهوتي (٢/٢٤).

[٣] حاشية ابن عابدين (٤/٥٤٧).

[٤] نفس المصدر.

[٥] المغني لابن قدامة المقدسي (٤/٣ ـ ٤) ومنار السبيل (١/٣٠٦).

[٦] الخرشي على مختصر خليل (٥/٦).

[٧] المجموع شرح المهذب (٩/١٩٠).

فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ [سورة النساء: ٤] وقال تعالى: ﴿ إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم ﴾ [سورة النساء : ٢٩] . إلى غير ذلك من الآيات المشروع فيها هذه العقود: إما أمراً، أو إباحة، والمنهي فيها عن بعضها كالربا .

ثمّ وجّه شيخ الإسلام استدلاله بأمور:

أحدها: أن الله تعالى أمر بالتراضي في البيع، وبطيب النفس في التبرع، ولم يشترط لفظاً ولا فعلاً معيناً يدل على التراضي .

والثاني: أن هذه الأسماء جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ معلقاً بها أحكاماً شرعية، وكل اسم فلا بد له من حد، فمنه ما يُعلم حده باللغة، كالشمس والقمر، ومنه ما يعلم بالشرع، كالمؤمن والكافر، وما لم يكن له حد في اللغة ولا في الشرع: فالمرجع فيه إلى عرف الناس . ومعلوم أن البيع والإجارة والهبة ونحوها لم يحد الشارع لها حداً، لا في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين أنه عيّن للعقود صفة معينة الألفاظ أو غيرها . ثم قال: فإذا لم يكن له حد في الشرع ولا في اللغة، كان المرجع فيه إلى عرف الناس وعاداتهم، فما سمّوه بيعاً فهو بيع، وما سمّوه هبةً فهو هبة[١].

المطلب الثالث: شروط المعقود عليه ـ السلعة ـ:

لقد اشترط الفقهاء في المعقود عليه وهو السلعة شروطاً، وهي:

١ـ أن تكون السلعة مملوكةً للعاقد، أو أن تكون مأذوناً له في بيعها[٢].

٢ـ أن تكون السلعة مالاً متقوماً، وهو الطاهر المنتفع به شرعاً[٣].

وقد فرّق الحنفية بين المال والمتقوم، فالمال: ما يمكن ادّخاره ولو غير مباح كالخمر، والمتقوم: ما يمكن ادخاره مع الإباحة، فالخمر: مال غير متقوم[٤].

٣ـ أن يكون مقدوراً على تسليمه[٥].

٤ـ العلم بالثمن والمثمن ـ وهو السلعة ـ علماً يقطع المنازعة[٦].

---

[١] القواعد النورانية الفقهية (٧٧ ـ ٧٩) لابن تيمية ـ بتصرف ـ .

[٢] الخرشي على مختصر خليل (٢٢/٥) والمجموع شرح المهذب (١٧٤/٩) ومنار السبيل (٣٠٨/١) .

[٣] الخرشي على مختصر خليل (٥/ ١٥) وكفاية الأخيار لأبي بكر الحصني الدمشقي (٤٥٩/١) والإنصاف للمرداوي (٤/ ٢٧٠) .

[٤] حاشية ابن عابدين (٥٣٤/٤) .

[٥] حاشية ابن عابدين (٥٣٨/٤) والخرشي على مختصر خليل (١٦/٥ ـ ١٧) والمجموع شرح المهذب (١٧٤/٩) ومنار السبيل لابن ضويان (٣٠٨/١) .

[٦] ابن عابدين (٥٣٨/٤) والخرشي (٢٢/٥) والمجموع (٣٤٦/٩) ومنار السبيل (٣٠٨/١) .

الفصل الثاني

تعلق حق الآخرين بالمال المملوك

تحريم أكل أموال الناس بغير حق:

لقد حرَّم الإسلام أكل أموال الناس بالباطل، فقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [سورة النساء: ٢٩] ، وعظّم رسول الله ﷺ الحقوق وأموال الناس، وجعل حرمتها كحرمة الدماء والأعراض، فكان مما قاله في خطبته يوم النحر في حجة الوداع: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا))[١]. وفي الصحيح عن سعيد بن زيد رضي الله عنه أن أروى خاصمته في بعض داره، فقال: دعوها وإياها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه، طوِّقه من سبع أراضين يوم القيامة)) اللهم إن كانت كاذبة فأعمِ بصرها واجعل قبرها في دارها، قال: فرأيتها عمياء تلتمس الجدار، تقول: أصابتني دعوة سعيد بن زيد، فبينما هي تمشي في الدار مرت على بئر في الدار فوقعت فيها، فكانت قبرها[٢].

كيف يتعلق حق الآخرين بالمال المملوك:

يتعلق حق الآخرين بالمال المملوك في صور كثيرة، وسأذكر بعضاً منها للتمثيل لا الحصر، فمنها:

١ـ القرض: فإن المقرض يملك في ذمة المقترض من المال مثل ما أقرضه، وبالتالي فإن حقه ثابت في مال المقترض .

وقد اختلف الفقهاء في ملكية المال المقترض، هل يملكه المقترض بالعقد، أو بالقبض، أو بالتصرف . على ثلاثة أقوال للفقهاء، أبينها فيما يلي:

أولاً: الحنفية: ذهب الإمام أبو حنيفة وتلميذه محمد رحمهما الله، إلى أن القرض يملك بالقبض، فلو اقترض إنسان مالاً فله الاحتفاظ به ورد مثله وإن طلب المقرض رد العين، لأنه خرج عن ملك المقرض وثبت له في ذمة المقترض مثله لا عينه ولو كان قائماً .

وقال أبو يوسف رحمه الله: لا يملك المقترض القرض ما دام قائماً[٣].

---

[١] جزء من حديث رواه البخاري (٦٧) .

[٢] رواه مسلم (١٢٣١) .

[٣] الفقه الإسلامي وأدلته، د. زحيلي (٤/٧٢٣ ـ ٧٢٤) .

ثانياً: المالكية: ذهب المالكية إلى أن القرض يلزم بمجرد التلفظ بالعقد، ويصير القرض بذلك ملكاً للمقترض، يُقضى له به عند التنازع ولو لم يقبضه، وذلك على خلاف القاعدة في عقود التبرعات كالهبة والصدقة، فإنها لا تتم إلا بالقبض والحيازة، فلو تعاقد اثنان على قرض ثم مات المقرض قبل أن يسلم المال للمقترض لا يبطل القرض، بل من حق المقترض أن يطالب به، ويُقضى له به، بخلاف الهبة وسائر التبرعات الأخرى، فإنها تبطل إذا مات المعطي أو حصل له مانع يمنعه من التبرع قبل أن يستلمه المتبرع له [١].

ثالثاً: الشافعية: للشافعية قولان في المسألة:

الأول: لا يملك المقترض القرض إلا بالتصرف بالبيع أو بالهبة، أو يتلفها أو تتلف في يده .

الثاني: يملكها المستقرض بالقبض، لأنه بالقبض يملك التصرف فيها في جميع الوجوه[٢].

رابعاً: الحنابلة: قالوا: يثبت الملك في القرض بالقبض، لأنه عقد يقف التصرف فيه على القبض، فوقف الملك عليه، كالهبة، ولا خيار فيه، لأن المقرض دخل على بصيرة أن الحظ لغيره، فهو كالواهب[٣].

الترجيح:

والذي يترجح أن القرض يُملك بالقبض، وهو قول أبي حنيفة وتلميذه محمد بن الحسن، كما أنه مذهب الحنابلة وقول في مذهب الشافعي، وذلك لأن الإنسان إذا قبض القرض حق له التصرف فيه، وثبت للمقرض مثله في الذمة، وإلا فكيف يتصرف الإنسان في شيء لم يقبضه ويقع تحت قهره .

تحريم الاقتراض بغير نية الأداء:

وقد حرم الإسلام الاقتراض بنية أكل المال وعدم سداده وأدائه، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: ((من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى اللّه عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه اللّه))[٤].

٢ـ ومنها: المؤجر يملك الأجرة المستحقة على المستأجر مقابل استيفائه منفعة ما استأجره، وقد اختلف الفقهاء متى تجب الأجرة، هل تلزم بنفس العقد أم باستيفاء المنفعة، ولبيان ذلك أذكر أقوال الفقهاء من مصادرهم:

---

[١] مدونة الفقه المالكي د. الصادق الغرياني (٣/٤٨٧ ـ ٤٨٨) .

[٢] المجموع شرح المهذب (١٣/١٦٦) .

[٣] الكافي لابن قدامة المقدسي (٣/١٧١) .

[٤] رواه البخاري (٢٣٨٧) .

أولاً: الحنفية: ذهب الحنفية إلى أن الأجرة لا تجب بالعقد، لأن استيفاء المنفعة تثبت شيئاً فشيئاً، فمن ضرورة التراخي في المنفعة، التراخي في البدل الآخر، لكن إن شرط التعجيل، أو عجَّل من غير شرط جاز، لأن المساواة تثبت حقاً له وقد أبطله[١].

ثانياً: المالكية: ذهب الإمام مالك إلى أن الثمن يلزم شيئاً فشيئاً بحسب ما يقبض من المنافع إلا أن يشترط ذلك[٢]. جاء في المدونة الكبرى: أرأيت من اكترى داراً سنة، متى تجب الأجرة على المتكاري ؟ قال: سألت مالكاً عن ذلك فقال لي: إذا لم يكن بينهما شرط دفع إليه بحساب ما اكترى مما سكن[٣].

ثالثاً: الشافعية: قالوا: تجب الأجرة عند الإطلاق بنفس العقد، وإن شرط التأجيل أو التعجيل اتُبع، لأن المؤمنين عند شروطهم[٤].

رابعاً: الحنابلة: قالوا: يملك المؤجر الأجرة بمجرد العقد إذا أطلق ولم يشترط المستأجر أجلاً، فإن شرط تأجيل الأجر فهو إلى أجله، وإن شرطه منجماً يوماً يوماً أو شهراً شهراً، أو أقل أو أكثر فهو على ما اتفقا عليه[٥]. ومتى ما استوفى المستأجر المنافع استقر الأجر لأنه قبض المعقود عليه فاستقر عليه البدل كما لو قبض المبيع[٦].

الترجيح:

والراجح أن الأجرة تلزم بالعقد إلا إن شرطا التأجيل كما هو مذهب الشافعية والحنابلة، وذلك لأن الإجارة من العقود اللازمة، بمعنى: أنها تلزم بنفس العقد، ولا يحق لأحد الطرفين فسخها إلا بما تفسخ به العقود اللازمة كالعيوب، فإذا استلم المستأجر العين بالعقد ـ وقلنا إنه يلزم به ـ لزم ما يقابله وهو الأجرة .

هذا الراجح فيما اختلفوا فيه، أما ما اتفقوا عليه، وهو أن الأجرة تلزم إذا استوفى المستأجر المنفعة فأمر بيّن في حق المؤجر في مال المستأجر يستقر في ذمته .

---

[١] الهداية للمرغيناني (٣/٢٦١) .

[٢] بداية المجتهد لابن رشد (٢/٢٢٨) .

[٣] المدونة الكبرى برواية سحنون عن ابن قاسم (٣/٥٢٥) و(٣/٥١٨) في كراء الدار مشاهرة .

[٤] المجموع شرح المهذب (١٥/١٧) وكفاية الأخيار (١/٥٨٧) وانظر رحمة الأمة في اختلاف الأئمة (٣٤٥) .

[٥] المغني لابن قدامة (٥/٢٥٧) .

[٦] نفس المصدر، وانظر رحمة الأمة (٣٤٥) .

وهناك صور أخرى لتعلق حق الآخرين بالمال المملوك، ويجمع هذه الصور: ثبوت حق الدائن ـ أو صاحب الحق ـ في ذمة المدين، أو عين ماله إذا كان ماله قائماً بذاته لم ينقص منه شيء، على ما سأذكره فيما بعد إن شاء الله .

الفصل الثالث

أحوال المدينين ـ أو من عليه الحق ـ

يختلف حال المدين من حيث اليسار والإعسار، وكون الدين حالاً أو مؤجلاً، وبناءً على الاختلاف في الحال يختلف الحكم في معاملة المدينين، وسأبين ذلك في مبحثين إن شاء الله .

المبحث الأول: الدَّيْن المؤجل:

تكاد تتفق أقوال الفقهاء في أن من عليه ديناً مؤجلاً، أنه لا يطالب به قبل محل أجله، جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية[١]: إذا كان الدين مؤجلاً فلا يجب أداؤه قبل حلول الأجل، لكن لو أدى قبله صح وسقط عن ذمة المدين .

واختلفوا في سفره، وسأعرض لأقوال الفقهاء بالتفصيل:

١ـ الحنفية: قالوا: لا يحق للدائن أن يطالب المدين قبل حلول الأجل، ولا منعه من السفر قبل حلول الأجل، سواءً كان الأجل بعيداً أم قريباً، وله أن يخرج معه حتى إذا حلَّ الأجل منعه من المضي في سفره إلى أن يوفيه دينه[٢].

٢ـ المالكية: ذهب المالكية إلى أن من له دين مؤجل له أن يمنع من عليه الدين من السفر البعيد الذي يحل دينه فيه في غيبة المدين، ولو لم يحط الدين بماله، هذا إذا لم يكن له وكيل يضمن الحق في غيبته، أو يكون له مال حاضر يمكن قضاء الحق منه، وهذا فيما لو كان موسراً، أما إن كان معسراً فله أن يذهب كيف يشاء[٣].

٣ـ الشافعية: قالوا: إذا كان الدين مؤجلاً لم يجز مطالبته به قبل حلول الأجل، لأن ذلك يسقط فائدة التأجيل، إلا إن أراد أن يسافر قبل حلول الدين سفراً يزيد على التأجيل، فإن كان لغير الجهاد فليس له أن يطالبه برهن ولا ضمين، قال الشافعي: يقال له: حقك حيث وضعته، يعني أنك رضيت حال العقد أن يكون مالك عليه بلا رهن ولا ضمين .

---

[١] الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٤١/٢) .

[٢] بدائع الصنائع للكاساني (١٧٣/٧) .

[٣] الخرشي على مختصر خليل (١٧٩/٦) .

وإن كان السفر للجهاد، فله منعه إلى أن يقيم له كفيلاً، أو يعطيه رهناً بدينه، لأن الشافعي قال: لا يجاهد إلا بإذن أهل الدين، ولم يفرق بين الحال والمؤجل[1].

٤ـ الحنابلة: ذهب الحنابلة إلى من لزمه دين مؤجل لم يجز مطالبته به، لأنه لا يلزمه أداؤه قبل أجله، فإن أراد سفراً يحل دينه قبل قدومه منه، فلغريمه منعه إلا برهن أو ضمين مليء، وإن كان الدين يحل بعد قدومه من السفر، فروايتان في المذهب: الأولى: له منعه، لأن قدومه عند حلول الأجل غير متيقن فملك منعه منه .

والثانية: ليس له منعه، لأنه لا يملك المطالبة به في الحال[2].

المبحث الثاني: الدين الحال:

إذا كان الدين حالاً فإنه يجب أداؤه على الفور عند الطلب، ويقال له الدين المعجل، وذلك متى كان قادراً على الأداء لقول النبي ﷺ: ((مطل الغني ظلم))[3]. إلا أن المدين في الدين الحال يختلف حكمه في حال عسره عن حال يسره، وسأبين ذلك في مطلبين:

المطلب الأول: المدين الذي ثبت عسره:

فإن كان معسراً لم يطالب بالدين ولم يجز حبسه، بل يُنظر، لقوله تعالى: ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٠] ، ولأن الحبس لدفع الظلم بإيصال حقه إليه، ولا ظلم فيه لعدم القدرة، ولأنه إذا لم يقدر على قضاء الدين، لا يكون الحبس مفيداً ، لأن الحبس شُرع للتوسل إلى قضاء الدين، لا لعينه[4].

الاختلاف في ملازمة المدين:

واختلف الفقهاء في ملازمة الدائن المدين المعسر، هل يلازمه فيذهب ويجيء معه أم لا ؟

ذهب جمهور أهل العلم إلى أن الدائن ليس له ملازمة المدين المعسر، لأنه دين لم يملك المطالبة به، فلم يملك ملازمته به كالدين المؤجل[5].

---

[1] المجموع شرح المهذب (١٣/٢٧٣) .

[2] الكافي (٣/٢٢٥) .

[3] رواه البخاري (٢٢٨٧ و٢٢٨٨) ومسلم (١٥٦٤) .

[4] بدائع الصنائع (٧/١٧٣) ومدونة الفقه المالكي (٣/٦٨١) والمجموع شرح المهذب (١٣/ ٢٧١) والكافي (٣/٢٢٥) والموسوعة الفقهية الكويتية (٢/٣٤١) .

[5] مدونة الفقه المالكي (٣/٦٨١) والمجموع شرح المهذب (١٣/ ٢٧١) والكافي (٣/٢٢٥) .

وذهب الحنفية إلى أن للدائن ملازمة المدين المعسر، فيسير معه حيث سار، ويجلس معه حيث جلس إلا أن يمنعه من الاكتساب، وإذا رجع إلى داره فإن أذن المدين لصاحب الدين بالدخول معه دخل معه، وإلا انتظره على الباب ليلازمه بعد الخروج، إلا إذا قضى القاضي بالإنظار فإنه لا يلازمه[١]. وخالف زفر المذهب فقال بقول الجمهور[٢].

الاختلاف في إلزامه بالتكسب لقضاء الدين:

واختلف أهل العلم في إلزام المدين بالاكتساب لقضاء الدين، فذهب جمهور أهل العلم إلى عدم إلزامه، لأن الدين في ذمته فلا يتحول إلى ذاته[٣].

وذهب الحنابلة في رواية إلى أنه يجبر على العمل والكسب لقضاء الدين، والرواية الثانية لا يُجبر كقول الجمهور[٤].

الترجيح:

والراجح ما ذهب إليه جمهور أهل العلم، لما روى أبو سعيد الخدري ﷺ أن رجلاً أصيب في ثمارٍ ابتاعها فكثر دَيْنه فقال النبي ﷺ: ((تصدقوا عليه)) فتصدقوا فلم يبلغ وفاءَ دَيْنه، فقال النبي ﷺ: ((خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك))[٥].

المطلب الثاني: المدين الموسر:

المدين الموسر الذي له قدرة على قضاء دينه، يجب عليه الوفاء ويحرم عليه التأخير والمطل لقول النبي ﷺ: ((مطل الغني ظلم))[٦].

ووصف المطل بالظلم يدل على أن المطل والتسويف من القادر على الأداء معصية من الكبائر، لأن الظلم من الكبائر[٧].

قال ابن عبد البر رحمه الله: (إنما يكون المطل من الغني إذا كان صاحب الدين طالباً لدينه راغباً في أخذه، فإن كان الغريم مليئاً غنياً ومطله وسوَّف به فهو ظالم له، والظلم محرَّم قليله وكثيره)[٨].

---

[١] بدائع الصنائع (١٧٣/٧) والذخيرة للقرافي (١٥٩/٨) والفقه الإسلامي وأدلته (٤٦٢/٥) .

[٢] بدائع الصنائع (١٧٣/٧) .

[٣] الذخيرة للقرافي (١٥٩/٨) ومدونة الفقه المالكي (٦٨١/٣) والمجموع شرح المهذب (٢٧٢/١٣) .

[٤] الكافي (٢٢٦/٣) .

[٥] رواه مسلم (١٥٥٦) في المساقاة (باب استحباب الوضع من الدين) .

[٦] سبق تخريجه .

[٧] مدونة الفقه المالكي (٦٨٢/٣) والمجموع (٢٧٢/١٣) والكافي (٢٢٧/٣) والموسوعة الفقهية (٣٤١/٢) .

[٨] الاستذكار لابن عبد البر(٢٦٨/٢٠) مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

حبس المدين المماطل:

إذا كان المدين مماطلاً في الوفاء وله مال يفي بدينه للحال ولم يسدد، فهل يبيع الحاكم ماله إن عُلِم له مال، أو يحبسه حتى يبيع ماله أو يظهر له مال، لقوله ﷺ: ((لَيُّ الواجد يُحل عرضه وعقوبته))[1]. ومعنى قوله: يحل عرضه: أي يحل من القول فيه ما لم يكن يحل لولا مطل وليه.

ومعنى عقوبته: أي السجن حتى يؤدي أو يثبت عسرته، فيجب حينئذٍ نظره[2].

أقوال الفقهاء في حبس المدين المماطل:

١ـ الحنفية: قالوا: يحبس المدين إذا كان الدين حالاً عليه وكان مماطلاً بشرط طلب الدائن من القاضي حبس المدين، فما لم يطلب لا يحبس، لأن الدين حقه فيتوقف على طلبه[3].

٢ـ المالكية: ذهب المالكية إلى أنه إذا لم يثبت فقر المدين، وامتنع عن الأداء مدعياً الإعسار جاز حبسه لقوله ﷺ: ((لَيُّ الواجد يحل عرضه وعقوبته))[4]ويؤجل إن وعد بالوفاء، أو أقام كفيلاً يكفله بالسداد، أو طلب التأخير لبيع أمواله وعروضه التجارية إن قدم كفيلاً يكفله[5].

٣ـ الشافعية: ذهب الشافعية إلى أنه إذا حلَّ الدين وكان له مال ظاهر باع الحاكم عليه ماله وقضى الدين ولم يحبس، وإن امتنع من عليه الدين من القضاء وكتم ماله عزره الحاكم وحبسه إلى أن يظهر ماله[6].

٤ـ الحنابلة: قالوا: إن أبى من عليه الدين السداد، حبسه الحاكم لقوله ﷺ: ((لَيُّ الواجد يحل عرضه وعقوبته))[7]فإن لم يقضه باع الحاكم ماله وقضى دينه[8].

قال ابن المنذر: أكثر من نحفظ عنه من علماء الأمصار وقضاتهم يرون الحبس في الدين[9].

---

[1] رواه أحمد (٣٨٩/٤) والنسائي (٣١٦/٧ ـ ٣١٧) وأبو داود (٣٦٢٨) وابن ماجه (٢٤٢٧) وهو صحيح.

[2] الاستذكار لابن عبد البر (٢٧٠/٢٠).

[3] الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٥١/٥) والفقه الإسلامي وأدلته (٤٦٣/٥).

[4] سبق تخريجه.

[5] مدونة الفقه المالكي (٦٨٢/٣ ـ ٦٨٣) والفقه الإسلامي وأدلته (٤٦٤/٥).

[6] المجموع شرح المهذب (٢٧٣/١٣) والموسوعة الفقهية (٢٥٢/٥).

[7] سبق تخريجه.

[8] الكافي (٢٢٧/٣).

[9] المغني (٢٩١/٤).

المماطل لا تجوز شهادته:

قال سحنون بن سعيد: (إذا ماطل الغني بدين عليه، لم تجز شهادته لأن النبي ﷺ سمَّاه ظالماً)[١].

الحبس بالديون التجارية:

قال الإمام مالك رحمه الله في حبس التاجر المدين الذي يأخذ أموال الناس للتجارة ولا يُعلم أنه سُرق ماله أو حلَّت عليه مصيبة، قال: (إذا كان له مال فاتهمه السلطان أن يكون غيَّبه، قال مالك: أو مثل هؤلاء التجار الذين يأخذون أموال الناس فيقعدون عليها، فيقولون: قد ذهبت منا ولا نعرف ذلك إلا بقولهم، وهم في مواضعهم لا يعلم أنه سرق مالهم ولا احترق بيتهم أو مصيبة دخلت عليهم ولكنهم يقعدون على أموال الناس، فإن هؤلاء يحبسون حتى يوفوا الناس حقوقهم)[٢].

وقال الشافعية: إن حصل الدين بمعاوضة، كالديون التجارية ـ وهي في عرف الفقهاء مثل البيع والسَّلم والقرض ـ فإنه لم تقبل فيه دعواه أنه معسر، لأنه قد ثبت ملكه للمال، والأصل بقاؤه، فلا نقبل قوله في الإقرار بل يحبسه الحاكم، فإن قال: غريمي يعلم أني معسر أو أن مالي هلك، فإن صدَّقه الغريم على ذلك خُلي من الحبس[٣].

وقال الحنابلة: إن عُرف له مال لكون الدين ثبت عن معاوضة كالبيع والقرض، أو عُرف له أصل مال سوى هذا، فالقول قول غريمه مع يمينه، فإذا حلف أنه ذو مال حبس حتى تشهد البيّنة بإعساره[٤].

الفصل الرابع

نزع القاضي ملكية المدين وبيعها

إذا كان للمدين مال ظاهر فهل يبيع القاضي ـ أو الحاكم ـ ماله لسداد دينه، فيكون من بيع مال الغير بغير رضاه لمصلحته، أو ما يسميه الفقهاء: إكراه بحق، أو يحبسه ليوفي دينه. ولبيان أقوال أهل العلم في المسألة أذكر أقوالهم من مصادرهم، وذلك في مبحثين اثنين:

---

(١) الاستذكار (٢٠/ ٢٧٠).

(٢) المدونة الكبرى (٥٩/٤).

(٣) المجموع شرح المهذب (٢٧٤/١٣).

(٤) المقنع لابن قدامة المقدسي (١٣٣/٢).

المبحث الأول: بيع القاضي أو الحاكم مال المدين:

١ـ الحنفية: ذهب الحنفية إلى أنه ليس للحاكم أن يبيع مال المدين، لأنه نوع حجر، ولأنه لا بيع إلا عن تراض، فيكون باطلاً، ولكن يحبسه أبداً حتى يبيعه ويوفي دينه[١].

٢ـ المالكية: ذهب المالكية إلى أنه إذا كان له مال فيؤخذ منه مقدار الدين ويقسمه الحاكم على الغرماء[٢].

٣ـ الشافعية: وأما الشافعية، فذهبوا إلى أن المدين الذي له مال ظاهر يبيع الحاكم عليه ماله ويقضي عنه الدين[٣].

٤ـ الحنابلة: وذهب الحنابلة إلى أن المدين الموسر إذا لم يقضِ الدين الذي عليه، باع الحاكم ماله وقضى دينه[٤]. قال في الروض المربع: إن أصر على عدم قضاء الدين ولم يبع ماله باعه الحاكم وقضاه[٥].

وقال في المقنع ـ في مسألة الدين الحال ـ: وإن كان حالاً وله مال يفي بدينه لم يحجر عليه، ويأمره الحاكم بوفائه، فإن أبى حبسه، فإن أصر باع ماله وقضى دينه[٦].

الترجيح: والذي يبدو أن تفصيل الحنابلة ـ الذي ذكره ابن قدامة ـ حسن، وهو أن يكون على الترتيب التالي:

١ـ أن يأمره الحاكم ببيع ماله لسداد دينه .

٢ـ إن امتنع، حبسه الحاكم وضيّق عليه ليبيع ماله وفاءً لدينه .

٣ـ إن أصرَّ على عدم البيع باع الحاكم ماله وقضى دينه .

وذلك أن مطل الغني ظلم يجب رفعه، فإذا كان لا يمكن رفعه من قِبل الحاكم بالحبس، تعيّن ذلك على الحاكم . ولأن وفاء الدين واجب، ولا يتم إلا ببيع الحاكم مال المماطل لأدائه عنه، فيكون واجباً .

---

(١) الهداية للمرغيناني (٣/٣٢٠) .

(٢) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام لابن فرحون المالكي (٢/٣١٩) وبداية المجتهد لابن رشد (٢/٢٨٤).

(٣) المجموع شرح المهذب (١٣/٢٧٣) .

(٤) الكافي (٣/٢٢٨) .

(٥) الروض المربع بشرح زاد المستقنع لمنصور بن يونس البهوتي (٢/٢٢٠) مكتبة الرياض الحديثة .

(٦) المقنع لابن قدامة (٢/١٣٢) .

هل يعد بيع القاضي مال المماطل من الإكراه:

لا يعتبر بيع القاضي مال المماطل من نزع الملكية بالإكراه المفسد للعقد، لأن الإكراه كما ذكر الفقهاء، نوعان: إكراه بحق، وإكراه بغير حق، فالممنوع منه النوع الثاني لا الأول . وأنقل أقوال الفقهاء في المسألة:

١ـ **المالكية**: قالوا: لا يصح بيع المكره بغير حق، حيث أن الإكراه نوعان: إكراه بحق، وإكراه بغير حق . فالمكره بغير حق: هو الذي أجبر بالجبر الحرام، فهذا لا يلزمه البيع، أما الجبر الشرعي، كأن يجبره القاضي أو الحاكم على بيع ماله لسداد دينه فيلزمه[١].

٢ـ **الشافعية**: قالوا: إن أكره بحق صح، لأنه قول حمل عليه بحق فصح[٢].

٣ـ **الحنابلة**: ذهب الحنابلة إلى أن بيع المكره لا يصح، إلا أن يكره بحق، كالذي يكرهه الحاكم على بيع ماله لوفاء دينه[٣].

المبحث الثاني: من صور نزع القاضي ملكية من عليه الحق:

أولاً: نزع القاضي ملكية المفلس وبيعها:

ومن صور بيع القاضي ملكية من عليه الحق، المفلس، وهو: الذي لا مال له، ولا ما يدفع به حاجته، وإنما سمي مفلساً لأنه لا مال له إلا الفلوس، وهي أدنى أنواع المال .

والمفلس في عرف الفقهاء: من دَيْنه أكثر من ماله، وخرجه أكثر من دخله[٤].

وقال في الإقناع[٥]: هو الذي ارتكبته الديون الحالّة اللازمة الزائدة على ماله .

أقوال الفقهاء في بيع القاضي ـ أو الحاكم ـ مال المفلس:

١ـ **الحنفية**: قالوا: إذا طلب غرماء المفلس الحجر عليه حجر القاضي عليه ومنعه من البيع والتصرف والإقرار حتى لا يضر بالغرماء، وباع ماله إن امتنع المفلس من بيعه وقسَمَه بين غرمائه بالحصص عندهما . لأن البيع مستحق عليه لإيفاء دينه حتى يحبس لأجله، فإذا امتنع ناب القاضي منابه . أما إن كان دينه دراهم، وله دراهم، قضى القاضي بغير أمره . وإن كان دينه دراهم وله دنانير، أو على ضد ذلك، باعها القاضي في دينه .

---

[١] الخرشي على مختصر خليل (٩/٥) .

[٢] المجموع شرح المهذب (١٨٥/٩ ـ ١٨٦) .

[٣] المقنع (٤/٢) ومنار السبيل (٣٠٦/١ ـ ٣٠٧) والروض المربع (٢٦/٢) .

[٤] المطلع على أبواب المقنع للبعلي الحنبلي (٢٥٤) .

[٥] الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع للخطيب الشربيني (٦١/٢) .

ويباع في الدين: النقود، ثم العروض، ثم العقار، يبدأ بالأيسر فالأيسر، لما فيه من المسارعة إلى قضاء الدين مع مراعاة جانب المديون[١].

٢ـ المالكية: قالوا: المفلس يبيع الحاكم ماله إن خالف جنس دَيْنه أو صفته، وإلا فإذا وافق دَيْنه جنس ماله فلا حاجة إلى بيعه.

ويندب إحضار المدين عند بيع أملاكه قطعاً لحجته[٢].

شروط تفليس المدين عند المالكية:

ويشترط لتفليس من أحاط الدين بماله عند المالكية ثلاثة شروط:

الأول: أن يطلب أرباب الديون كلهم أو بعضهم.

الثاني: حلول الدين، فلا حجر بدين مؤجل.

الثالث: أن يكون الدين الحال زائداً على مال المفلس، فلا حجر في الدين المساوي، أو بقي من ماله بعد وفاء الحال ما لا يفي بالدين المؤجل[٣].

٣ـ الشافعية: قالوا: إذا سأل الغرماء الحاكم أن يحجر على المدين المفلس، نظر الحاكم في ماله، فإن كان يفي بما عليه من الدين لم يحجر عليه، بل يأمره بقضاء الدين، فإن امتنع باع عليه الحاكم ماله وقضى أصحاب الديون[٤].

٤ـ الحنابلة: ذهب الحنابلة إلى أنه يبيع الحاكم مال المفلس ويقضي دينه، ويستحب أن يحضره عند البيع لأنه أعرف بثمن مثله[٥].

إذا وجد الدائن عين ماله عند المفلس:

إذا وجد الدائن عين ماله عند المفلس، ولم يفت، إلا أنه لم يقبض ثمنه، فقد اختلف الفقهاء في ذلك، هل يأخذ عين ماله لأنه أحق به من سائر الدائنين، ويكون ذلك فسخاً للعقد، لحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: ((من وجد متاعه بعينه عند إنسان قد أفلس فهو أحق به))[٦]. أم لا يحق له أخذه، ويبقى ديناً في ذمة المفلس، فيكون هذا الدائن أسوة بسائر الغرماء ينتظر بيعها لتقسم عليه وعلى سائر الدائنين بنسبة ديونهم ؟ اختلف الفقهاء في ذلك:

---

[١] الهداية للمرغيناني (٣/٣٢٠).

[٢] الخرشي على مختصر خليل (٦/١٩٠) ومدونة الفقه المالكي (٣/٦٩١ ـ ٦٩٢).

[٣] الخرشي (٦/١٨٢) ومدونة الغرياني (٣/٦٨٨).

[٤] المجموع شرح المهذب (١٣/٢٧٨).

[٥] الكافي (٣/٢٣٢).

[٦] رواه البخاري (٢٤٠٢) ومسلم (١٥٥٩).

١ـ الحنفية: ذهب الحنفية إلى أنه يكون أسوة الغرماء يقاسمونه فيها، واستدلوا بما رواه قتادة عن خلاس عن علي ﷺ قال: (هو فيها أسوة الغرماء إذا وجدها بعينها)[١].

وأجابوا عن حديث أبي هريرة ﷺ بأنه مخالف للأصول، قال ابن رشد: على طريقتهم في رد خبر الواحد إذا خالف الأصول المتواترة لكون الواحد مظنوناً، والأصول يقينية مقطوع بها[٢].

٢ـ وذهب جمهور أهل العلم من المالكية والشافعية والحنابلة، إلى أن صاحب السلعة أحق بها إذا وجدها بعينها عند المفلس، فيكون بالخيار بين أخذ السلعة أو تركها، ويكون أسوة الغرماء عملاً بحديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((من وجد متاعه بعينه عند إنسان قد أفلس فهو أحق به))[٣].

ولا يفتقر إلى حاكم للحديث ـ على خلافٍ بينهم فيما لو كانت السلعة ناقصة عما كانت عليه، هل يكون أحق بها أو يكون أسوة الغرماء[٤]ـ .

الترجيح:

والراجح ما ذهب إليه جمهور أهل العلم للحديث، قال ابن عبد البر رحمه الله: حديث التفليس حديث صحيح من نقل الحجازيين والبصريين، رواه العدول عن النبي ﷺ . ودفعه طائفة من العراقيين منهم: أبو حنيفة وأصحابه، وسائر الكوفيين، وردوه بالقياس على الأصول المجتمع عليها، وهذا ما عيبوا به، وعُدَّ عليهم من السنن التي ردوها بغير سنةٍ صاروا إليها، لأنهم أدخلوا القياس والنظر حيث لا مدخل له، وإنما يصح الاعتبار والنظر عند عدم الآثار .

وحجتهم؛ أن السلعة من المشتري وثمنها في ذمته، فغرماؤه أحق بها كسائر ماله، وهذا لا يجهله عالم، ولكنَّ الانقياد إلى السنّة أولى بمعارضتها بالرأي عند أهل العلم، وعلى ذلك العلماء[٥].

---

[١] رواه عبد الرزاق في المصنف برقم (١٥١٧٠) .

[٢] الهداية للمرغيناني (٣/٣٢٢) وبداية المجتهد (٢/٢٨٧) ورحمة الأمة في اختلاف الأئمة لمحمد العثماني (٣٠٢) والفقه الإسلامي للزحيلي (٥/٤٦٨) .

[٣] سبق تخريجه .

[٤] مدونة الفقه المالكي (٣/٦٩٤) والمجموع شرح المهذب (١٣/٢٩٧) والكافي (٣/٢٣٥ و٢٣٨) والإقناع في مسائل الإجماع لأبي الحسن ابن القطان (٢/١٨٠) والفقه الإسلامي وأدلته (٥/٤٦٨ ـ ٤٦٩) والاستذكار لابن عبد البر (٢١/٢٤ ـ ٢٥) .

[٥] الاستذكار (٢١/٢٤) .

وأما الأثر الذي استدلوا به، عن قتادة عن خلاس عن علي ﷺ، فهو ضعيف، فإن خلاس بن عمرو قال عنه الحافظ في لسان الميزان:

ذكره ابن أبي حاتم، مجهول[١].

وقال ابن عبد البر: أحاديث خلاس عن علي ﷺ ضعيفة عند أهل العلم بالحديث، لا يرون في شيء منها إذا انفرد بها حجة[٢].

ماذا يترك للمفلس ولا يباع:

وقد اتفق الفقهاء على أن الحاكم يبيع مال المفلس لقضاء دينه وتترك له الحاجات الأصلية، ولكن اختلفوا في تقدير الحاجات الأصلية، وسأعرض لأقوالهم من مصادرهم .

١ـ الحنفية: قالوا: يترك على المفلس دست من ثياب بدنه ويباع الباقي، لأن به كفاية، وقيل: دستان، لأنه إذا غسل ثيابه لا بد له من ملبس[٣]. وينفق عليه وعلى زوجته وأولاده الصغار وذوي أرحامه ممن يجب نفقته عليه لأنها حاجة أصلية مقدمة على حق الغرماء[٤].

٢. المالكية: ذهب المالكية إلى أنه يباع على المفلس جميع أملاكه، الثابت منها والمنقول، بما في ذلك كتبه، ويترك له من اللباس المعتاد بحسب حاله وما يستره ويستر من تلزمه نفقته من الابن والزوجة، وإذا كانت ثيابه فاخرة تباع ويشترى له منها الثياب اللائق بأمثاله، ويترك له من القوت ما يكفيه ويكفي من تلزمه نفقته، وتترك له دار سكناه إن لم يكن فيها زيادة على القدر الضروري، فإن كان فيها فضل تباع وتشترى له دار تناسبه[٥].

ولا تباع آلة الصائغ القليلة الثمن التي لا بد منها لحرفته، فإن كانت كثيرة القيمة تباع، ويشترى له منها الآلة الضرورية قليلة الثمن[٦].

٣ـ الشافعية: قالوا: يترك له الحاكم ما يحتاج إليه من الكسوة ما يكفيه على ما جرت به عادته، أو ما تدعو إليه ضرورة الزمن إن كان صيفاً أو شتاءً . قال الشافعي

---

[١] لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (٤٠٢/٢) رقم (١٦٥١) دار الكتاب الإسلامي القاهرة .

[٢] الاستذكار (٢٥/٢١ ـ ٢٦) .

[٣] الهداية (٣٢٠/٣) .

[٤] نفس المصدر (٣٢١/٣) .

[٥] مدونة الفقه المالكي (٦٩٢/٣) .

[٦] نفس المصدر .

رحمه الله: إن كانت له ثياب غوال بيعت . قال في المجموع[١]: قال أصحابنا: أراد إذا كان من عوام الناس، وله ثياب غالية جرت العادة أن يلبسها ذوو الأقدار بيعت ويشترى له ثياب جرت العادة أن يلبسها مثله، ويصرف الباقي من ثمنها إلى الغرماء . ويترك له أيضاً نفقة من تلزمه نفقتهم كزوجة وأبناء . فإن مات المفلس كانت مؤنة تجهيزه وكفنه من ماله .

وإذا كان له دار يسكنها أو سيارة يركبها بيعت عليه، وصرف ثمنها للغرماء ـ الدائنين ـ لأنه يمكنه أن يستأجر داراً يسكنها، ويركب المرافق العامة من وسائل المواصلات، وقد جرت عادة الناس بذلك، بخلاف الثياب فإن العادة لم تجرِ باكترائها[٢].

٤ـ **الحنابلة**: قالوا: يترك للمفلس نفقته ونفقة من تلزمه مؤنته من أقاربه وزوجته، ويكون ذلك من أدنى ما ينفق على مثلهم، أو يُكتسى مثلهم، فإن كانت له ثياب أرفع من كسوة مثله، بيعت واشتُري لهم كسوة مثلهم ورُدَّ الفضل على الغرماء ـ الدائنين ـ، وإن مات منهم ميت كفن من ماله، ولا يُباع داره التي لا غنى له عن سكناها، لأنه مما لا بد منه أشبه الكسوة، فإن كانت الدار واسعة يكفيه بعضها بيع الفاضل منها إن أمكن، وإلا بيعت كلها واشتُري له مسكن مثله، وإن لم يكن له مسكن استؤجر له مسكن لأن ذلك مما لا بد منه، ورُد الفضل على الغرماء .

وإن كان مسكنه وخادمه وثيابه أعيان أموال الناس أفلس بها، فلهم أخذها للخبر، لأن حقوقهم تعلقت بالعين فكانت أقوى من غيرها، ويحتمل أن من لم يكن له مسكن ولا خادم فاستدان ما اشتراهما به، وأفلس بذلك الدين أن يباع مسكنه وخادمه لأنهما بأموال الغرماء، فتبقيتهما له إضرار بهم، وفتح باب الحيلة للمفاليس في استدانة ما يشترون به ذلك فيبقى لهم[٣].

الترجيح في مسألة بيع عقاره الذي يسكنه:

والذي يبدو أن ما ذهب إليه الحنابلة تفصيل حسن، وهو التفريق بين ما إذا كان الدين متعلقاً بعين العقار الذي يسكنه، أو السيارة التي يستعملها فللغرماء أخذها

---

[١] تكملة الشيخ محمد بخيت المطيعي .

[٢] المجموع شرح المهذب (١٣/٢٩٠ ـ ٢٩٢) .

[٣] الكافي (٣/٢٤٨ ـ ٢٥٠) .

لحديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((من وجد متاعه بعينه عند إنسان قد أفلس فهو أحق به))[١]. ولأن حقوقهم تعلقت بعين الشقة أو السيارة فتركهما للمدين إضرار بالدائن، وفتح لباب الحيلة كما ذكر الحنابلة .

وأما إن لم تكن الديون متعلقة بعين الشقة أو السيارة، كأن تكون الديون متعلقة بذمة المدين ـ فالذي يبدو أنه يباع ماله ويترك له قدر حاجته الأصلية، وذلك لأن أصل الدين متعلق بذمته لا بسكناه، ولأن النبي ﷺ قال في رجل أصيب في ثمار ابتاعها فكثر دَيْنه، فقال رسول الله ﷺ: ((تصدقوا عليه))، فتصدق الناس عليه، ولم يبلغ ذلك وفاءَ دَيْنه، فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: ((خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك))[٢].

ثانياً: نزع القاضي ملكية الراهن وبيعها:

ومن صور نزع القاضي الملكية بغير رضا صاحب الملكية، نزع ملكية الراهن عن العين المرهونة وبيعها عند حلول الأجل .

والرهن: هو مال يُجعل وثيقةً بالدين ليُستوفى منه عند العجز عن السداد[٣].

والرهن مشروع بالكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣] ومن السنة: عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: ((اشترى من يهودي طعاماً إلى أجل ورهنه درعه))[٤].

اختلاف الفقهاء في بيع القاضي الرهن:

وقد اختلف الفقهاء في نزع ملكية الراهن وبيعها عند حلول أجل الدين، هل للحاكم أن يبيع المرهون من غير حاجة إلى إجباره بحبس، أو ليس للحاكم أن يبيع المرهون بغير رضا الراهن، وإنما يحبسه حتى يبيعه بنفسه ؟

١ـ الحنفية: ذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنه لا يجوز للحاكم أن يبيع الرهن بدينه بعد حلول الأجل إذا كان الراهن مفلساً، ولكن يحبس الراهن حتى يبيعه .

وذهب أبو يوسف ومحمد بن الحسن رحمهما الله، إلى أن للحاكم أن يبيعه لسداد الدين[٥].

---

[١] سبق تخريجه .

[٢] رواه مسلم (١٥٥٦) .

[٣] انظر: الإقناع للخطيب الشربيني (٥١/٢) ومنار السبيل لابن ضويان (٣٥١/١) .

[٤] رواه البخاري (٢٥٠٩) ومسلم (١٦٠٣) .

[٥] تحفة الفقهاء للسمرقندي (٤٣/٣) .

٢ـ المالكية: قالوا: إذا حلَّ الدين، ولم يفِ الراهن بالدين لعسره، أو امتنع من الوفاء وهو موسر، فللمرتهن الحق في أن يستوفي دينه من الرهن، إن كان يمكن الاستيفاء من عينه كالنقود، فإن فضل شيء رده للراهن، وإن نقص كان الراهن ملزماً بتسديد الباقي .

وإذا لم يكن الاستيفاء من الرهن ممكناً إلا ببيعه، مثل الآلة والسيارة والعقار، فللمرتهن أن يطلب بيعه عن طريق القضاء ليستوفي حقه، وليس له أن يتولى البيع بنفسه، إلا أن يأذن له الراهن، لأنه يتهم بعدم التقصي في الثمن فيغبن الراهن بالبيع .

ويجوز للراهن برضاه أن يوكل المرتهن ببيع الرهن، لكن البيع عن طريق القضاء أحوط وأبعد عن النزاع حتى لا يُتهم المرتهن بعدم التقصي في الثمن[١] .

٣ـ الشافعية: قالوا: إن طلب المرتهن بيع الرهن وأبى الراهن، ولم يقضِ الدين، أجبره القاضي على قضائه، أو البيع إما بنفسه أو وكيله، فإن أصر باعه الحاكم ولو كان الراهن غائباً[٢].

٤ـ الحنابلة: ذهب الحنابلة إلى أنه إذا حلَّ الدين فوفّاه الراهن انفك الرهن، وإن لم يوفّه وكان قد أذن في بيع الرهن، بيع واستوفى الدين من ثمنه، وما بقي فله، وإن لم يأذن في بيعه، طولب بالإيفاء أو ببيعه، فإن أبى أو كان غائباً فعل الحاكم ما يراه من إجباره على البيع أو القضاء، أو بيع الرهن بنفسه أو بأمينه[٣] .

الترجيح:

والراجح ما ذهب إليه الجمهور، وهو جواز بيع القاضي الرهن إذا لم يبعه الراهن، لما في ذلك من رفع الضرر عن المرتهن، وتأدية حقه، ولأنه من الإكراه بحق كما ذكرناه في مبحث سابق، ولأن الرهن إنما جُعل وثيقة بالدين ليُستوفى منه عند العجز عن السداد، فإذا عجز الراهن عن السداد، ولم يرضَ ببيع الرهن، فللحاكم أن يتدخل لفك الرهن وإبراء ذمة الراهن وأداء حق المرتهن .

---

[١] مدونة الفقه المالكي (٣/٦٣٨ ـ ٦٣٩) .

[٢] روضة الطالبين للنووي (٤/٨٨) .

[٣] الكافي (٣/١٨٦ ـ ١٨٧) .

مسائل في هذا المبحث:

المسألة الأولى: هل يباع مال المدين بأقل من ثمن المثل:

لا يباع مال المدين لسداد دَيْنه بأقل من ثمن المثل المستقر في وقته، فقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل عليه دين حال، وله ملك، لا تفضل فضلة عن نفقته ونفقة عياله، وإذا أراد بيعه لم يتهيأ له إلا بدون ثمن مثله، فهل يلزمه بيعه بدون ثمن مثله؟ وإذا لم يلزمه بيعه فهل يقسَّط الدين عليه على قدر حاله أم لا ؟

فأجاب: لا يباع إلا بثمن المثل المعتاد غالباً في ذلك البلد، إلا أن تكون العادة تغيرت تغيراً مستقراً فيكون حينئذٍ ثمن المثل قد نقص، فيباع بثمن المثل المستقر، وإذا لم يجب بيعه، فعلى الغريم الإنظار إلى وقت السعة أو الميسرة، وله أن يطلب منه كل وقت ما يقدر عليه وهو التقسيط[1].

أقوال الفقهاء:

١ـ المالكية: قالوا: يندب إحضار المدين عند بيع أملاكه قطعاً لحجته، وما كان كثير الثمن من أملاكه كالعقار لا يباع في الحال، بل ينتظر به الشهر والشهران حتى يطلب به أعلى الأسعار[2].

٢ـ الشافعية: ذكر الشافعية أن الحاكم إذا أراد أن يبيع مال المدين فالمستحب أن يحضره لأنه أعرف بثمن ماله . قالوا: يباع كل شيء في سوقه لأن أهل السوق أعرف بقيمة المتاع[3].

٣ـ الحنابلة: قالوا: يستحب للحاكم أن يُحضر المدين عند البيع لأنه أعرف بثمن ماله، ويباع كل شيءٍ في سوقه لأن أهل السوق أعرف بقيمة المتاع وأرغب، وطلابه فيه أكثر، فإن باعه في غيره بثمن مثله جاز[4].

المسألة الثانية: هل يغرم المدين تكاليف الشكاية ومصاريف القضية:

سئل ابن تيمية رحمه الله عمن عليه دين فلم يوفِه حتى طولب به عند الحاكم وغيره، وغرم أجرة الرحلة، هل الغرم على المدين أم لا ؟

---

[1] الفتاوى لابن تيميمة (٢٥/٣٠ ـ ٢٦) .

[2] مدونة الفقه المالكي (٦٩٢/٣) .

[3] المجموع شرح المهذب (٢٩٢/١٣) .

[4] الكافي (٢٣٢/٣ ـ ٢٣٣) . باختصار .

فأجاب: إذا كان الذي عليه الحق قادراً على الوفاء، ومطله حتى أحوجه إلى الشكاية، فما غرمه بسبب ذلك فهو على الظالم المماطل إذا غرمه على الوجه المعتاد[١].

ونخلص من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أن المدين إذا كان مماطلاً أو صاحب حِيَل وما شابه، فإنه يتحمّل مصاريف وتكاليف رفع القضية عليه عند الحاكم بشرط أن تكون المصاريف بسعر المثل دون التوسع في ذلك . والله أعلم .

الفصل الخامس

البيع بالمزاد العلني

إذا تقرر أن للقاضي بيع مال المدين أو من عليه الحق عموماً ـ إذا كان مماطلاً ـ بثمن المثل لسداد دينه والحقوق المالية المتوجبة عليه، فهل يجوز بيعها بالمزاد العلني كما جرت بذلك العادة في بيع المحاكم ملكية المدينين . ولبيان ذلك أعرض المسألة مبيناً أدلة الجواز والتحريم مع من ذهب إلى ذلك من أهل العلم، والترجيح، وذلك في مبحثين اثنين:

المبحث الأول: ذكر أقوال أهل العلم في البيع بالمزاد:

أولاً: ذهب جمهور أهل العلم إلى جواز البيع فيمن يزيد، ونقل ذلك عن الجمهور الإمام النووي [٢]، وأيده بقوله: (وأما السوم في السلعة التي تباع فيمن يزيد فليس بحرام)[٣].

واستدل الجمهور على جواز البيع بالمزايدة بحديث جابر ﷺ: أن رجلاً أعتق غلاماً له عن دُبُر، فاحتاج، فأخذه النبي ﷺ فقال: ((من يشتريه مني)) فاشتراه نُعيم بن عبد الله بكذا وكذا، فدفعه إليه[٤].

وقد اعترض بعض أهل العلم[٥]على هذا الحديث، بأنه ليس في قصة المدبَّر[٦]بيع المزايدة، فإن بيع المزايدة أن يعطي به واحد ثمناً ثم يعطي به غيره زيادة عليها[٧].

---

[١] الفتاوى (٣٠/٢٤ـ٢٥) .

[٢] شرح مسلم للنووي (١٠/١٥٩) .

[٣] نفس المصدر (١٠/١٥٨) .

[٤] رواه البخاري (٢١٤١) في البيوع (باب بيع المزايدة) .

[٥] هو الإسماعيلي كما نقل عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤/٤١٦) .

[٦] من التدبير، وهو تعليق عتق العبد بالموت .

[٧] فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (٤/٤١٦) .

وقد أجاب ابن بطَّال بأن شاهد الترجمة قوله في الحديث: ((من يشتريه مني))[١] قال: فعرضه للزيادة ليستقضي فيه للمفلس الذي باعه عليه[٢].

ومما يدل على الجواز: ما ذكره البخاري تعليقاً عن عطاء قال: (أدركت الناس لا يرون بأساً ببيع المغانم فيمن يزيد)[٣]. وقال مجاهد: (لا بأس ببيع من يزيد، كذلك كانت تباع الأخماس)[٤].

ثانياً: من ذهب إلى المنع من بيع المزايدة:

وذهب بعض أهل العلم إلى المنع من بيع المزايدة، ونقل الحافظ في الفتح الكراهة فيه عن إبراهيم النخعي[٥]، وروى البزار من حديث سفيان بن وهب قال: ((سمعت النبي ﷺ ينهى عن بيع المزايدة)) لكن قال عنه الحافظ ابن حجر: في إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف[٦].

ثالثاً: من ذهب إلى حصر الجواز بالغنائم والمواريث:

وقد ذهب بعض أهل العلم منهم الأوزاعي وإسحاق، إلى تخصيص الجواز في البيع بالمزايدة، بالغنائم والمواريث فقط[٧]، وروى الدارقطني[٨] عن زيد بن أسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((نهى رسول الله ﷺ عن بيع المزايدة، ولا يبع أحدكم على بيع أخيه، إلا الغنائم والمواريث)) . قال في حاشية سنن الدارقطني[٩]: (أخرج المؤلف حديث ابن عمر رضي الله عنهما من ثلاثة طرق: ففي الأولى أيضاً ابن لهيعة، وفي الثانية شهر بن حوشب، وقد تُكلم فيهما، وفي الثالثة الواقدي وهو متروك) .

---

[١] جزء من الحديث السابق .

[٢] انظر فتح الباري (٤/٤١٦) .

[٣] رواه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي شيبة (٥/٢٩) بنحوه .

[٤] رواه ابن أبي شيبة (٥/٢٩) .

تنبيه: وأما الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن أنس ﷺ: ((أن رسول الله ﷺ باع حِلساً وقدحاً فيمن يزيد)) الحديث ... رواه الترمذي (١٢١٨) وضعفه المحدث الألباني رحمه الله تعالى.

[٥] فتح الباري (٤/٤١٦) .

[٦] نفس المصدر (٤/٤١٥) .

[٧] نفس المصدر (٤/٤١٦) .

[٨] سنن الدارقطني (٣/١١) .

[٩] نفس المصدر (٣/١٣) .

الترجيح: والراجح فيما يظهر وتؤيده الأدلة، ما ذهب إليه جمهور أهل العلم، وهو صحة البيع بالمزاد، لا سيما وقد صح فيه حديث جابر ﷺ عند البخاري أن النبي ﷺ قال في المدبَّر: ((من يشتريه مني)) وهذا عرض للسوم فيمن يزيد، ومما يؤيد مذهب الجمهور أن عطاء ذكر جوازه عمن أدركهم وهم الصحابة رضي الله عنهم، ومذهب الصحابي حجة على الراجح من أقوال أهل العلم، لاسيما إذا لم يكن له مخالف من طبقته، فكيف وعطاء ينقل عن جمهورهم .

وأما من ذهب إلى المنع، فلا يستند إلى دليل يصلح للحجية .

وأما من ذهب إلى اختصاص الجواز بالغنائم والمواريث فليس له ما يستدل به إلا قول عطاء بذكره: المغانم، ويجاب عنه: بأن ذكر المغانم خرج مخرج الغالب فيما يعتاد فيه البيع مزايدة وهي الغنائم والمواريث، ويلتحق بهما غيرهما للاشتراك في الحكم[١] .

لاسيما وأنه ليس في الغنائم شيء يخصها، فالغنائم والمواريث من أفراد أسباب الملك، فإذا ملك الإنسان السلعة بأي سبب من أسباب الملك ـ سواء بالشراء أو الهبة والهدية أو الإرث وغير ذلك ـ جاز له بيعها، لأنه إذا استوت الأسباب في إفادة الملك، وجب أن يستوي حكم التصرف فيها بعد الملك .

المبحث الثاني: الفرق بين البيع بالمزاد والبيع على البيع:

قد يشكل على البعض وجه الفرق بين جواز البيع بالمزاد، والنهي أن يبيع الرجل على بيع أخيه، حيث ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ نهى أن يبيع المسلم على بيع أخيه . ولبيان وجه الفرق أذكر ذلك .

أولاً: الأحاديث الناهية عن بيع الرجل على بيع أخيه:

روى مسلم في صحيحه[٢] عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يبعْ بعضكم على بيع بعض)) وروى أيضاً[٣] عنه عن النبي ﷺ قال: ((لا يبع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه إلا أن يأذن له)) . وروى أيضاً[٤] من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: ((نهى أن يستام الرجل على سوم أخيه)) .

---

[١] انظر فتح الباري (٤/٤١٥) .

[٢] في البيوع (باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه) برقم (١٤١٢) .

[٣] نفس المصدر برقم (١٤١٣) .

[٤] نفس المصدر .

ثانياً: معنى النهي أن يبيع الرجل على بيع أخيه:

قال الإمام النووي رحمه الله: (مثاله أن يقول لمن اشترى شيئاً في مدة الخيار: افسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثله بأرخص من ثمنه أو أجود منه بثمنه ونحو ذلك، وهذا حرام، يحرم أيضاً الشراء على شراء أخيه، وهو أن يقول للبائع في مدة الخيار افسخ هذا البيع وأنا أشتريه منك بأكثر من هذا الثمن ونحو هذا)[١].

وقال الحافظ ابن حجر: (قال العلماء: البيع على البيع حرام، وكذلك الشراء على الشراء، وهو أن يقول لمن اشترى سلعةً في زمن الخيار: افسخ لأبيعك بأنقص، أو يقول للبائع: افسخ لأشتري منك بأزيد وهو مجمع عليه)[٢].

ثالثاً: معنى النهي أن يستام الرجل على سوم أخيه:

قال الإمام النووي رحمه الله: (وأما السوم على سوم أخيه فهو أن يكون قد اتفق مالك السلعة والراغب فيها على البيع، ولم يعقداه، فيقول الآخر للبائع: أنا أشتريه وهذا حرام بعد استقرار الثمن)[٣].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وأما السوم فصورته أن يأخذ شيئاً ليشتريه فيقول له: رده لأبيعك خيراً منه بثمنه أو مثله بأرخص، أو يقول للمالك: استرده لأشتريه منك بأكثر، ومحله بعد استقرار الثمن وركون أحدهما إلى الآخر)[٤].

رابعاً: بيان وجه الفرق بين المزاد والبيع على البيع:

ووجه الفرق بين البيع بالمزاد والنهي عن البيع على البيع:

١ـ أن البائع في البيع على البيع قطع السلعة عن الآخرين ببيعها، بينما البائع في المزاد لم يقطع الرغبة في عرضها لمن يشتري .

٢ـ أن البائع في البيع على البيع قد رضي بالثمن الذي دفعه المشتري وقنع به وأجرى الصفقة على أساسه، وإن كان لا يزال في مدة الخيار . وأما البائع في المزاد فلم يرضَ بما دفعه المشتري الأول أو الثاني، ولا يزال يعرض السلعة للبيع .

---

[١] شرح مسلم للنووي (١٠/١٥٨) .

[٢] فتح الباري (٤/٤١٤ ـ ٤١٥) .

[٣] شرح مسلم للنووي (١٠/١٥٨) .

[٤] فتح الباري (٤/٤١٥) .

متى يزول الفرق بين البيع بالمزاد والبيع على البيع:

ويزول الفرق بين البيع بالمزاد والنهي عن البيع على البيع، إذا رضي البائع بالمزاد بأحد الأسعار وقطع السلعة عن العرض ودلَّل على ذلك بالصيغة الظاهرة أو بالفعل الدال على العقد[1]، فهنا يحرم البيع على هذا البيع، لأن البائع قطع الرغبة بالزيادة ورضي بالبيع على أحد الأسعار .

خاتمة البحث

لقد بحثت حكم نزع القاضي ملكية المدينين وبيعها بالمزاد العلني، وتوصلت إلى النتائج التالية:

١ـ أن الملكية تثبت للإنسان بأي سبب من أسبابها المشروعة، ولنقل الملكية شروط، من أهمها فيما يخص بحثنا: الرضى المنافي للإكراه، فلا يصح نقل الملكية بالإكراه إلا من أكره بحق كمن أكرهه الحاكم أو القاضي على بيع ماله لوفاء دَيْنه .

٢ـ أن الشريعة حرمت أكل أموال الناس بغير حق، كما حرمت الاقتراض بنية أكل المال وعدم السداد .

٣ـ بيَّنتُ أن الملكية قد يتعلق بها حقٌ للآخرين، ومن صورها القرض، وعقد الإيجار الذي لم يبذل فيه المستأجر الأجرة، وكل حق ثبت للدائن في ذمة المدين، أو عين ماله إذا كان ماله قائماً بعينه لم ينقص منه شيء .

٤ـ أن الدَّين نوعان، حال ومؤجل، وأن الدين المؤجل لا يطالب به قبل حلول أجله، لكن قد يُمنع من السفر إذا كان سفره مخوفاً، أو يحل فيه الدين قبل رجوعه ـ على خلاف في ذلك بين أهل العلم ـ . وأما الدَّين الحال فإن كان المدين معسراً فلا يطالب ويُنظر، وإن كان مماطلاً فللحاكم حبسه ومطالبته بالوفاء .

٥ـ أن الديون التجارية لا تصدَّق فيها دعوى المدين بالإفلاس، فيحبس حتى يشهد غريمه بإعساره أو تشهد البيّنة بذلك .

٦ـ أن المدين المماطل إذا حبسه الحاكم وطالبه ببيع ماله لسداد دينه فلم يفعل أن للقاضي أو الحاكم أن يبيع ماله لسداد دينه، وهو من الإكراه بحق .

---

[1] على مذهب الحنفية والحنابلة في جواز بيع المعاطاة . وهو أن يقول: خذ وأعطني فيعطيه ما يرضيه دون إيجاب وقبول .

٧ـ أن من صور نزع القاضي ملكية المدين: المفلس، وهو الذي ارتكبته الديون اللازمة الزائدة على ماله، فيبيع الحاكم لسداد دينه .

٨ـ أن الدائن إذا وجد ماله بعينه ـ لم ينقص ـ عند المفلس فهو أحق به .

٩ـ أن المفلس إذا باع الحاكم ماله، يترك له نفقته ونفقة عياله، كما يترك له حاجاته الأصلية التي تليق بحاله كمسكن يليق به، وسيارة، إلا أن يكون الدين متعلقاً بعين العقار الذي يسكنه أو السيارة التي يستعملها فللغرماء أخذها، رفعاً للضرر عن الدائن، وسداً لباب الحيل، ولأنها عين ماله المتعلق بها حقه .

١٠ـ أن من صور نزع القاضي ملكية المدينين، نزعه للعين المرهونة إذا عجز الراهن عن السداد، ولم يبع سلعته المرهونة، فيبيعها القاضي لسداد دينه .

١١ـ أن بيع القاضي لملكية المدين يجب أن يكون بسعر المثل اللائق بالسلعة، ولا تباع السلعة بأقل من ثمن المثل رفعاً للضرر عن المدين، بل يستحب إحضاره ليشهد بيع سلعته قطعاً للتهمة .

١٢ـ أن المدين إذا كان مماطلاً أو صاحب حِيَل، فإنه يتحمَّل مصاريف رفع القضية عليه، بالسعر المعتاد دون زيادة .

١٣ـ أن بيع القاضي سلعة المحكوم عليه بالدين، بالمزاد العلني جائز، لجواز البيع بالمزاد العلني في الشريعة، وذلك بالشروط المعتبرة والمذكورة آنفاً .

هذا ما توصلت إليه في بحثي، فإن وفقت فالحمد لله، فإن الفضل منه لا من سواه، وإن أخطأت أو قصَّرت فمن تقصيري، وأسأل الله أن يتقبل هذا الجهد المتواضع وينفع به فإنه ولي ذلك والقادر عليه . وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه .



الامتيازات الدبلوماسية
في الفقه الإسلامي والقانون الدولي

فضيلة الشيخ الدكتور وليد بن خالد الربيع ❖

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ،

فهذا بحث موجز في أحكام الامتيازات الدبلوماسية في الفقه الإسلامي والقانون الدولي، تناولت فيه أهم ملامح هذا الجانب، مبيناً مواطن التلاقي والافتراق بينهما ، مع العناية بذكر أبرز الأسس التي استند إليها كل من الفقه الإسلامي والقانون الدولي في تأصيل قواعد وضوابط الامتيازات الدبلوماسية وما تفرع عن ذلك من أحكام شرعية ومواد قانونية أخذت طابع الإلزام بعد أن كانت أعرافاً تقوم على المجاملة وحسن المعاملة .

تمهيد

يتناول هذا التمهيد تعريف كل من الامتيازات والدبلوماسية في اللغة والاصطلاح الفقهي والقانوني وذلك في مبحثين:

المبحث الأول

تعريف الامتيازات لغة واصطلاحاً

أولاً: تعريف الامتيازات لغة:

الامتيازات جمع امتياز من الفعل امتاز يقال: امتاز الشيء إذا بدا فضله على مثله، كما يطلق بمعنى انفصل عن غيره وانعزل . ومنه قوله تعالى: ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ [سورة يس:٥٩] . أي تميزوا . وقيل: أي انفردوا عن المؤمنين، فأصل الكلمة يدل على

❖ الأستاذ المساعد بكلية الشريعة جامعة الكويت ـ دولة الكويت ـ

تزيل شيء من شيء وانفصاله عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ [سورة الأنفال آية: ٣٧] فالامتياز تدل على التمييز بين الأشياء بعزل بعضها عن بعض أو بتفضيل بعضها على بعض[١].

ثانياً: تعريف الامتياز اصطلاحاً:

لم ترد كلمة امتياز في النصوص الشرعية ولا في لغة الفقهاء ـ بحسب اطلاعي ـ بالمعنى القانوني لها، ولهذا سأكتفي في هذا المبحث بتعريف القانون الدولي لها .

يقصد بالامتياز في الاصطلاح القانوني أولوية يقررها القانون لحق معين مراعاة منه لصفته، ولا يكون للحق امتياز إلا بمقتضى نص في القانون، كما يحدد القانون مرتبة الامتياز بالنسبة للامتيازات الأخرى[٢].

أما في القانون الدولي فيقصد بمصطلح الامتياز: التمتع بمزايا وإعفاءات معينة تسمح للمبعوث الدبلوماسي بتأمين وتحقيق أهداف مهمته [٣].

ولا يختلف هذا المفهوم في الفقه الإسلامي ـ كما سيظهر في الفصل الثاني ـ وإن لم يستعمل الفقهاء هذا اللفظ للتعبير عن هذا المعنى.

المبحث الثاني

تعريف الدبلوماسية لغة واصطلاحاً

تعريف الدبلوماسية:

تعرف الدبلوماسية بأنها علم وفن ممارسة التمثيل الخارجي بواسطة هيئة من الممثلين السياسيين تعرف بالسلك الدبلوماسي .

فالدبلوماسية من حيث هي علم تشمل دراسة القانون الدولي العام والخاص وتاريخ وتطور العلاقات الدولية والمعاهدات التي تنظم هذه العلاقة لاسيما إذا كانت الدولة التي ينتسب إليها الدبلوماسي طرفاً فيها .

أما من حيث إن الدبلوماسية فن فذلك يشمل إحاطة بالعرف الدبلوماسي وأساليب الدبلوماسية واستخدام وحفظ الوثائق ومعرفة بامتيازات السلك السياسي والتقاليد

---

[١] لسان العرب (٤١٢/٥)، معجم مقاييس اللغة (٢٨٩/٥)، المعجم الوسيط (٩٢٩/٢) مادة (ميز) .

[٢] دائرة المعارف الحديثة (١٥٩/١) .

[٣] الدبلوماسية (٤٢١) .

الخاصة بالبروتوكول ـ المراسيم ـ في الاستقبالات الرسمية وعقد المؤتمرات وغير ذلك مما يتصل بمهمة الممثل الدبلوماسي في الخارج .

كما يطلق لفظ الدبلوماسية عرفاً على أسلوب من السلوك في المعاملات يتسم بالحذر والحيطة أو باللباقة والقدرة على التخلص من المزالق أو بالبراعة في الوصول إلى الغرض المقصود دون استثارة حفيظة أو نقمة، وجميع هذه الصفات تشييد بمهمة الدبلوماسي الناجح .

وفي بعض الأحيان ينصرف لفظ الدبلوماسية إلى ما يدين السياسي في حالة التجائه إلى التزييف أو المغالطة أو الخداع في الوصول إلى غرضه باعتبار أن الغاية تبرر الوسيلة وهو الأسلوب المعروف بالميكافيلية .

كما يستخدم لفظ الدبلوماسية في الإشارة إلى السياسة الخارجية للدولة[١].

ولفظ الدبلوماسية إغريقي الأصل، انتقل إلى اللاتينية ومنها إلى اللغات الأوروبية الحية ثم إلى اللغة العربية، وهو في أصله الإغريقي القديم يعني الوثيقة المطلوبة التي يبعث بها أصحاب السلطة إلى بعضهم البعض في علاقات رسمية، ولذلك كانت تعطي لحاملها امتيازات معينة .

وقد استعملت كلمة دبلوماسية خلال القرون الوسطى للدلالة على دراسة الوثائق وترتيبها وحفظها، ولم تأخذ هذه الكلمة معناها المتعارف عليه الآن إلا في القرن الثامن عشر، وقد انتشر هذا المعنى خاصة بعد مؤتمر فيينا ١٨١٥م حيث ظهرت كوادر سياسية متميزة عن رجال الحكم وانتشرت ظاهرة التمثيل الدبلوماسي الدائم والمقيم، ولذلك يطلق أحياناً لفظ الدبلوماسية للدلالة على المهنة الدبلوماسية أي العمل في السلك الدبلوماسي .

ويحدث أحياناً تداخل بين مفهوم السياسة الخارجية والدبلوماسية، فيستخدم هذا المصطلح الأخير للدلالة على السياسة الخارجية لدولة ما أو لمجموعة من الدول، فيقال دبلوماسية فرنسا أو دبلوماسية مجلس التعاون الخليجي .

وأحياناً يطلق لفظ الدبلوماسية للدلالة على نمط معين من أنماط العلاقات الدولية فيقال: دبلوماسية توازن القوى ودبلوماسية عدم الانحياز .

---

[١] القاموس السياسي ص(٥١٨) .

ولعل أكثر التعريفات شمولاً ودقة هو التعريف الذي وضعه فيليب كاييه بأن الدبلوماسية هي الوسيلة التي يتبعها أحد أشخاص القانون الدولي لتسيير الشؤون الخارجية بالوسائل السلمية وخاصة بطريقة التفاوض .

وهذا التعريف لم يختص الدول بالدبلوماسية ، فجميع أشخاص القانون الدولي الأخرى ـ لاسيما المنظمات الدولية ـ تمارس الدبلوماسية ، كما أن هذا التعريف لم يدخل في مسائل فرعية مثل تعداد مهام الدبلوماسية ، كما أنه لا يشترط الاحتراف أخذاً بالاعتبار قيام غير الدبلوماسيين المحترفين ـ مثل رجال السياسة والحكمة والخبراء ـ بأهم وظيفة دبلوماسية ألا وهي التفاوض .

ومن التعريف السابق يتضح الفارق بين الدبلوماسية والسياسة الخارجية ، فالسياسة الخارجية هي النهج الذي تتبعه الدولة في علاقاتها مع الدول الأخرى، أما الدبلوماسية فهي مجرد أداة أو وسيلة من وسائل تحقيق أهداف السياسة الخارجية[١].

أحكام الامتيازات الدبلوماسية في الفقه الإسلامي والقانون الدولي

تقدم أن المقصود بمصطلح الامتيازات هو التمتع بمزايا وإعفاءات معينة تسمح للمبعوث الدبلوماسي بتأمين وتحقيق أهداف مهمته ، وقد كانت تلك الامتيازات تمنح على أساس المجاملة الدولية والمعاملة بالمثل ، ثم أصبحت تمنح على أساس أنها قواعد ملزمة للدول مثلها مثل قواعد الحصانات ، وأن مخالفتها ترتب مسؤولية دولية واضحة ، ويظهر ذلك من خلال اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية حيث تضمنت ما يقارب من تسع عشرة مادة تنص على الامتيازات الدبلوماسية ، منها ثمان مواد تتعلق بامتيازات البعثة وإحدى عشرة مادة تتعلق بامتيازات أعضاء البعثة[٢].

وسيتناول هذا البحث هذه الامتيازات من خلال اتفاقية فيينا مقارنة بالفقه الإسلامي وذلك من خلال المباحث التالية :

---

[١] موسوعة العلوم السياسية (١٠٨٩/٢ـ١٠٩٠)، موسوعة السياسة (٦٥٨/٢)، الدبلوماسية ماضيها وحاضرها ومستقبلها جمال بركات ص(١٨)، القاموس السياسي ص (٥١٨) .

[٢] الدبلوماسية د. علي الشامي (٥١٩) .

المبحث الأول

الامتيازات المتعلقة بالضرائب والرسوم

يناقش هذا المبحث الامتيازات الدبلوماسية المتعلقة بالإعفاء عن الضرائب المختلفة والرسوم التي تفرضها الدولة المعتمد لديها على الخدمات المختلفة التي تقدمها ، ولا شك أن تلك الامتيازات ليست مطلقة وإنما وردت عليها ضوابط وقيود يتناولها المطلبان التاليان:

المطلب الأول

إعفاء مقر البعثة الدبلوماسية من الضرائب والرسوم

جاء في اتفاقية فيينا ما يؤكد إعفاء مقر البعثة الدبلوماسية من الضرائب والرسوم إلا ما استثني حيث نصت المادة (٢٣) على ما يلي:

١ـ تعفى الدولة المعتمدة ويعفى رئيس البعثة بالنسبة لمرافق البعثة، المملوكة أو المستأجرة، من جميع الرسوم والضرائب القومية والإقليمية والبلدية، ما لم تكن مقابل خدمات معينة .

٢ـ لا يسري الإعفاء المنصوص عليه في هذه المادة على تلك الرسوم والضرائب الواجبة بموجب قوانين الدولة المعتمد لديها على المتعاقدين مع الدولة المعتمدة أو مع رئيس البعثة .

و يستفاد من هذه المادة أمور منها :

أولاً: إعفاء مقر البعثة من جميع الرسوم والضرائب إذا كانت مملوكة من قبل الدولة المعتمدة أو رئيس البعثة بشرط أن تكون لحساب أو لصالح دولته لاستخدامها في أغراض البعثة، أما إن كانت للاستخدام الشخصي فلا تعفى من الضرائب كما نصت عليه الفقرة ب من المادة (٣٤) .

ثانياً: إن كان مقر البعثة مستأجراً، وكان هناك قانوناً محلياً يلزم المستأجر بدفع الرسوم والضرائب دون المالك، ففي هذه الحالة تعفى البعثة من ذلك ولا يستطيع مالك العقار إجبار البعثة على تحملها، إلا إذا اشترط في العقد أن تتحمل البعثة ضريبة العقار فهنا تلزم بها البعثة إن وافقت على هذا الشرط باعتبار أنها زيادة في الأجرة وليس ضريبة للدولة المعتمد لديها .

ثالثاً: لو كان للبعثة عقاراً مملوكاً لها وقامت بتأجيره للغير فإنها لا تعفى من الضريبة العقارية في هذه الحالة، لأن هذا نشاط استثماري وليست من أعمال الدبلوماسية المعتادة .

رابعاً: أكدت المادة على إعفاء مقر البعثة المملوكة والمستأجرة من جميع الرسوم والضرائب العامة القومية والإقليمية والبلدية، فلا يحق للدول المركبة الاتحادية أو الكونفدرالية أو المتحدة فرض ضريبة عقارية بحجة أن بعض دولها المتحدة تلزم مثل هذه الضرائب .

خامساً: الإعفاء من الرسوم والضرائب لا يشمل ما كان في مقابل خدمات خاصة معينة مثل خدمات الماء والكهرباء والهاتف ورفع النفايات .

سادساً: لا يشمل الإعفاء من الضرائب والرسوم الأشخاص الذين يتعاقدون مع البعثة أو رئيسها ، مثل ضرائب الدخل على الأرباح التي يجنونها من تعاملهم مع البعثة عند إجراء عقود البيع أو الإجارة إذا كانت الضريبة تستوفى من المالك، فلا يحق له التهرب منها بحجة أن عقاره مؤجر لبعثة دبلوماسية .

سابعاً: تعفى البعثة من الضرائب والرسوم التي تجنيها مقابل الخدمات التي تقدمها ، مثل رسوم منح سمات الدخول للأجانب، ورسوم تجديد أو تمديد جوازات السفر لمواطنيها أو توثيق الشهادات الرسمية ونحو ذلك[١].

المطلب الثاني

إعفاء أعضاء البعثة الدبلوماسية

اتجه الرأي لدى غالبية فقهاء القانون الدولي واستقر العرف الدبلوماسي على إعفاء المبعوث الدبلوماسي من جميع أنواع الضرائب ، وقد روعي في ذلك عدة اعتبارات منها طبيعة عمل الدبلوماسي ومصادر دخله ومرتباته ، وهي عادة من خارج الإقليم، وصعوبة تحصيل الضرائب منه لعدم خضوعه للسلطات المحلية ، وقد اعتبر ذلك الإعفاء امتيازاً أساسه المجاملة وليس حصانة خاصة[٢].

وقد نصت المادة (٣٤) من اتفاقية فيينا على إعفاء المبعوث الدبلوماسي من جميع الرسوم والضرائب الشخصية أو العينية أو الإقليمية أو البلدية باستثناء ما يلي:

١ـ الضرائب غير المباشرة التي تدخل أمثالها عادة في ثمن الأموال أو الخدمات .

---

[١] الدبلوماسية د. علي الشامي (٥٢٢ ــ٥٢٣)، العلاقات الدبلوماسية والقنصلية د. البكري (١١٤)، التمثيل الدبلوماسي والقنصلي المعاصر السفير عبد القادر سلامة (١٨٥) .

[٢] الدبلوماسية جمال بركات (١٩٧)، الدبلوماسي العربي د. حسن صعب (١٦٣) .

ومعنى هذا أن الضرائب التي تفرض على السلع الاستهلاكية والمشتريات لا سبيل لإعفاء المبعوث منها .

٢- الرسوم والضرائب المفروضة على الأموال العقارية الخاصة الكائنة في إقليم الدولة المعتمد لديها، ما لم تكن حيازته بالنيابة عن الدولة المعتمدة لاستخدامها في أغراض البعثة . فلا يعفى المبعوث الدبلوماسي من الضريبة العقارية المفروضة على الأموال غير المنقولة التي يملكها بصفة شخصية لصالحه، إلا إذا كانت مملوكة أو مستأجرة باسمه نيابة عن الدولة المعتمدة لاستخدامها في أغراض البعثة .

٣- الضرائب التي تفرضها الدولة المعتمد لديها على التركات، مع عدم الإخلال بأحكام الفقرة (٤) من المادة (٣٩) .

لا تعارض بين هذه الفقرة والفقرة الرابعة من المادة (٣٩) التي تسمح بسحب الأموال المنقولة للدبلوماسي في الدولة المعتمد لديها إذا توفي ولم يكن من مواطنيها أو المقيمين فيها إقامة دائمة، أو إذا توفي أحد أفراد أسرته من أهل بيته، وإعفائه من الضرائب على حقوق الإرث والتركات، أما الأموال التي كان قد اكتسبها في البلد ويكون تصديرها محظوراً فليس لهم الحق في سحبها .

أما الأموال غير المنقولة كالعقارات فإن المبعوث الدبلوماسي إذا توفي لا يعفى من ضريبة التركات والإرث المفروضة عليها .

٤- الرسوم والضرائب المفروضة على الدخل الخاص الناشئ في الدولة المعتمد لديها، والضرائب المفروضة على رؤوس الأموال المستثمرة في المشروعات التجارية القائمة في تلك الدولة .

ومثال ذلك حيازة المبعوث الدبلوماسي لعدد من الأسهم أو السندات أو شهادات الاستثمار أو حصص في شركات، فتخضع أرباح وفوائد تلك الأوعية الادخارية والأنشطة الاستثمارية للضرائب المقررة .

٥- المصاريف المفروضة مقابل خدمات معينة .

وهو نص عام يشمل ما تحصله الدولة المعتمد لديها لقاء خدمات تقدمها مثل نفقات استخراج الرخص والشهادات والتصاريح وخدمات المرافق كالماء والكهرباء والهاتف ونحو ذلك فلا تعفى من التحصيل، ويلزم بها المبعوث الدبلوماسي .

٦ـ رسوم التسجيل والتوثيق والرهن العقاري والدمغة والرسوم القضائية بالنسبة إلى الأموال العقارية .

فيلزم المبعوث الدبلوماسي بهذه الرسوم مع مراعاة أن مرافق البعثة سواء أكانت مملوكة أم مستأجرة، معفاة من جميع الرسوم والضرائب إلا ما استثني كما تقدم[١].

المبحث الثالث

الامتيازات المتعلقة بالإعفاء من الرسوم الجمركية

من أهم الامتيازات التي يتمتع بها المبعوث الدبلوماسي الإعفاء من الرسوم الجمركية والرسوم الأخرى على الأشياء الخاصة بالاستعمال الشخصي، بما في ذلك الأشياء اللازمة لإقامته وأفراد عائلته وفقاً للقوانين والأنظمة التي تصدرها الدولة المعتمد لديها، فمن حق المبعوث الدبلوماسي أن يجلب معه أو يستورد أثاثاً ووسيلة نقل وأغذية وأجهزة كهربائية ونحو ذلك دون أن تفرض عليه رسوم جمركية . وقد نصت المادة (٣٦) على أن تقوم الدولة المعتمد لديها، وفقاً لما تسنه من قوانين وأنظمة بالسماح بدخول المواد الآتية وإعفائها من جميع الرسوم الجمركية والضرائب والتكاليف الأخرى غير تكاليف التخزين والنقل والخدمات المماثلة :

١ـ المواد المعدة لاستعمال البعثة الرسمي .

٢ـ المواد المعدة للاستعمال الخاص للمبعوث الدبلوماسي أو لأفراد أسرته من أهل بيته، بما في ذلك المواد المعدة لاستقراره .وهذا الإعفاء ليس مطلقاً، وإنما هو مقيد بما تسنه الدول من قوانين ونظم، وهذا يعني حق الدولة المعتمد لديها في تحديد كمية البضاعة المستوردة لمنع إساءة استعمال هذا الإعفاء من جهة، وإخضاع المستوردات للقيود التي تراها ضرورية لحفظ النظام العام والآداب من جهة أخرى إلى درجة تحريم استيراد أنواع معينة من السلع[١].

---

[١] الدبلوماسية د. علي الشامي (٥٢٢ ــ٥٢٣)، العلاقات الدبلوماسية والقنصلية د. البكري (١١٤)، التمثيل الدبلوماسي والقنصلي المعاصر السفير عبد القادر سلامة (١٨٥)، الدبلوماسية جمال بركات (١٩٧)، الدبلوماسي العربي . حسن صعب (١٦٣) .

[١] المراجع السابقة .

المبحث الرابع

موقف الفقه الإسلامي من الامتيازات الدبلوماسية

لقد كان موقف الفقه الإسلامي من الامتيازات الدبلوماسية واضحاً وجلياً، ويمكن تحديد معالم هذا الموقف في الضوابط التالية :

أولاً: أموال المبعوث الدبلوماسي مصونة:

أكد الفقه الإسلامي على حرمة أموال المبعوث الدبلوماسي، فإذا دخل الرسول أو السفير دار الإسلام ثبت الأمان له ولمن معه ولما معه من أموال وثياب وآلة ركوب وآلات استعماله الشخصية، لأن الأمان ثبت لهم في أنفسهم بوصفهم رسلاً دون حاجة إلى عقد أمان جديد، وإذا ثبتت العصمة في النفس أصالة فإنها تثبت في المال تبعاً، ولذلك لا يجوز أخذ أموال الرسل ولا اغتنامها ولا الاعتداء عليها .

فإذا اشترط الأمان على الأموال نصاً فعندئذ تتأكد صيانتها وحرمتها أيضاً بالشرط، وإذا كانت أموالهم مصونة فإن المسلم إذا أتلف شيئاً للسفير ضمنه له إذا كان مالاً متقوماً ـ وهو ما كان محرزاً و يباح الانتفاع به شرعاً ـ، أما إذا أتلف له مالاً غير متقوم كخمر أو خنزير فقد وقع خلاف بين الفقهاء في حكم الضمان في هذه الحالة[٢]:

المذهب الأول: يضمن المسلم ما أتلفه من خمر وخنزير .

وهو مذهب الحنفية[٣] والمالكية[٤]، ودليلهم:

أن الخمر والخنزير من الأموال المتقومة في حق غير المسلمين كالخل والشاة في حقنا فيجوز انتفاعهم بهما في حكم الشرع[٥].

المذهب الثاني: لا يضمن المسلم ما أتلفه من خمر أو خنزير .

وهو مذهب جمهور الفقهاء[١]، ودليلهم:

---

[٢] أصول العلاقات الدولية د. عثمان ضميرية (٨٦٢/٢)، السفارات في الإسلام السفير محمد التابعي (١٦٣)، دراسات سياسية د. المكراد (١٠٥) .

[٣] بدائع الصنائع (١٤٣/٥)، تبيين الحقائق (٢٣٥/٥) .

[٤] مواهب الجليل (٢٨٠/٥)، الشرح الصغير (٤٧٤٧/٤) .

[٥] أحكام القرآن للجصاص (٤٣٦/٢) .

[١] روضة الطالبين (٢٨٠/١٠)، مغني المحتاج (٢٨٥/٢) .

أن هذه الأشياء ليست بأموال متقومة في حق المسلم فلا ضمان على من أتلفها، وما لا يكون مضموناً في حق المسلم لا يكون مضموناً في حق غير المسلم .

وهو المذهب الأظهر حيث إن من مسؤوليات المبعوث الدبلوماسي أن يحترم دين الدولة المعتمد لديها وقوانينها، ومن دين وأحكام الشريعة المطهرة حرمة الخمر والخنزير وعدم جواز اقتنائهما وعدم جواز إدخالهما بلاد المسلمين، فحيث خالف هذا المبدأ فلا ضمان على من أتلف خمراً أو خنزيراً مملوكين لمبعوث دبلوماسي .

ثانياً: إعفاء المبعوث الدبلوماسي من الضرائب المفروضة على أغراضه الشخصية:

يقرر الفقه الإسلامي مبدأ إعفاء السفراء والرسل من العشور والضرائب التي تؤخذ من غير المسلمين على ما معهم من أموال ومتاع لا يريدون به التجارة، قال أبو يوسف: ولا يؤخذ من الرسول ولا من الذي أعطي أماناً العشر إلا ما كان معهما من متاع التجارة فأما غير ذلك من متاعهم فلا عشر فيه[٢].

وقال ابن قدامة: ولا يؤخذ منهم من غير مال التجارة، فلو مر بالعاشر منهم منتقل ومعه أمواله أو سائمة لم يؤخذ منه شيء نص عليه أحمد، وإن كانت للتجارة أخذ منه نصف العشر[٣].

ولا شك أن في هذا الحكم تخفيفاً على المبعوث الدبلوماسي وتيسيراً له ليؤدي مهمته على الوجه الأكمل .

ومع التأكيد على حرية المبعوث الدبلوماسي في إدخال ما يحتاج إليه من متاع لاستخدامه الشخصي أو لأغراض البعثة وإعفائه من الرسوم الجمركية والضرائب، إلا أنه ينبغي أن يراعي طبيعة الدولة الإسلامية وسيادة الشريعة الإسلامية على مجتمع المسلمين، فيحرص على عدم إدخال ما يتنافى مع عقيدة المسلمين وأخلاقهم ودينهم مما هو مباح في غير بلاد المسلمين، لأن مثل هذا التصرف يتعارض مع قانون الدولة الإسلامية، ويكون من حقها منع إدخال مثل هذه الأشياء ومصادرتها، قال أبو يوسف: و لا

[٢] الخراج لأبي يوسف (١٨٨) .

[٣] المغني (١٠/٥٩٩) .

ينبغي أن يبايع الرسول ولا الداخل معه بأمان بشيء من الخمر أو الخنزير أو الربا وما أشبه ذلك لأن حكمه حكم الإسلام وأهله، ولا يحل أن يبايع في دار الإسلام ما حرم الله تعالى[١].

وهذا ما أكدته المادة (٤١) من اتفاقية فيينا ونصها: يجب على جميع المتمتعين بالامتيازات والحصانات مع عدم الإخلال بها، احترام قوانين الدولة المعتمد لديها وأنظمتها، ويجب عليهم كذلك عدم التدخل في شؤونها الداخلية.

ثالثاً: لا يعفى المبعوث الدبلوماسي من الضرائب على ما أحضره للتجارة:

قرر الفقهاء ـ كما تقدم ـ أن الإعفاء من العشور والضرائب قاصر على الأموال غير المعدة للتجارة، أما إن كانت مرصدة للتجارة فإنها لا تعفى من العشور والضرائب، وذلك أن المبعوث لما دخل دار الإسلام صار ماله في حماية الدولة الإسلامية فأوجب ذلك حق استيفاء هذه الضريبة منه[٢].

ودليل مشروعية هذه الضريبة قضاء عمر بن الخطاب ﷺ، حيث أمر بعض عماله بأن يأخذ من تجار أهل الحرب العشر، ومن تجار أهل الذمة نصف العشر ومن تجار المسلمين ربع العشر، وكان ذلك بمحضر من الصحابة فلم ينقل أنه أنكر عليه أحد[٣].

وينبغي أن يلاحظ هنا ما أشار إليه بعض الفقهاء وهو أن الضريبة التجارية لا تؤخذ إذا كان مال المستأمن الداخل إلى بلاد الإسلام أقل من مائتي درهم وهو نصاب الزكاة[٤]، كما قال ابن عابدين: الأصح عدم تعشير مالهم إذا لم يبلغ نصاباً وإن أخذوا منا من مثله، لأن ما دون النصاب قليل، والأخذ من القليل ظلم ولا متابعة في الظلم[٥].

ومن مظاهر سمو الفقه الإسلامي ورقيه، أن هذه الضريبة لا تؤخذ إلا مرة واحدة في السنة كما قال ابن قدامة معللاً ذلك: أنه حق يؤخذ من التجارة فلا يؤخذ أكثر من مرة في السنة كالزكاة[٦].

---

[١] الخراج لأبي يوسف (١٨٩).

[٢] بدائع الصنائع (٣٧/٢)، أحكام الذميين والمستأمنين د. زيدان (١٥٨).

[٣] الأموال لأبي عبيد (٥٣٠)، نيل الأوطار (٧٠/٨).

[٤] الخراج لأبي يوسف (١٣٢)، شرح السير الكبير (٢٨٧/٥).

[٥] حاشية ابن عابدين (٥٦/٢).

[٦] المغني (٦٠٤/١٠).

ويستند تقدير الضريبة إلى مبدأ المعاملة بالمثل، ودليل ذلك ما روي أن عاشراً ــ أي جابي الضريبة ــ كتب إلى عمر ﷺ: كم نأخذ من تجار أهل الحرب ؟ فقال: كم يأخذون منا ؟ فقال: هم يأخذون العشر، فقال: خذ منهم العشر، وروي عنه أنه قال لعشاره: خذوا منهم ما يأخذون منا، فإن أعياكم ذلك فخذوا منهم العشر[١].

وعلى هذا لو أخذت الدول الأخرى من تجار المسلمين أقل من ذلك فإن على الدولة الإسلامية أن تأخذ مثل ذلك من تجارهم، أما لو كانوا يأخذون الكل من تجار المسلمين فإنا لا نأخذ منهم مثل ذلك، لأن أخذ الكل غدر بالأمان الذي منحناه لمن دخل بلاد الإسلام ولا يصح في ديننا الغدر[٢].

وإذا شرط الحربيون في أمان الرسل ألا يأخذ عاشر المسلمين منهم شيئاً مطلقاً، فإن بعض الفقهاء يرى أن للمسلمين أن يشترطوا لهم ذلك وأن يوفوا لهم به إذا كانوا يعاملون رسلنا بمثل هذا[٣].

ويمكن للإمام أن لا يأخذ منهم شيئاً إذا دخلوا في نقل بضاعة بالناس حاجة إليها وهو قول الشافعي والقاضي من الحنابلة لأن في رفع الضريبة عنهم تحقيق نفع ومصلحة للمسلمين، كما روى الزهري عن عمر ﷺ أنه كان يأخذ من النبط من القطنية العشر ومن الحنطة والزبيب نصف العشر ليكثر الحمل إلى المدينة وهذا يدل على أنه يخفف عنهم إذا رأى المصلحة فيه وله الترك إذا رأى فيه المصلحة[٤].

رابعاً: عند رجوع المبعوث الدبلوماسي إلى بلاده فإنه لا يمنع من الخروج بمتاعه وماله، غير السلاح وما أشبه ذلك مما يتقوى به أعداء الدولة الإسلامية، فإن اشترى شيئاً من ذلك منع من إخراجه إذ قد يكون فيه ضرر على المسلمين بإفشاء أسرارهم العسكرية، قال الإمام مالك: كل ما هو قوة على أهل الإسلام مما يتقوون به في حروبهم من كراع أو سلاح مما يعلم أنه قوة في الحرب فإنهم لا يباعون ذلك[٥].

---

[١] الخراج لأبي يوسف (١٣٤)، شرح السير الكبير (٢٨٥/٥).

[٢] أحكام الذميين والمستأمنين د. زيدان (١٥٩).

[٣] الخراج (٢٢٤)، شرح السير الكبير (١٧٩٠/٥).

[٤] المغني (٦٠٣/١٠).

[٥] المدونة (٢٧٠/٤)، السيل الجرار للشوكاني (٥٦١/٤)، أصول العلاقات الدولية د. ضميرية (٨٧١/٢).

الخاتمة

وبعد هذا العرض الموجز لبيان موقف كل من الفقه الإسلامي والقانون الدولي من الامتيازات الدبلوماسية، يمكن تلخيص أهم النتائج التي ظهرت من خلال البحث فيما يلي:

أولاً: لم ترد كلمة امتياز في النصوص الشرعية ولا في لغة الفقهاء، وإنما هو اصطلاح قانوني يقصد به: التمتع بمزايا وإعفاءات معينة تسمح للمبعوث الدبلوماسي بتأمين وتحقيق أهداف مهمته .

ثانياً: الدبلوماسية علم وفن وأسلوب تعامل، فهي الوسيلة التي يتبعها أحد أشخاص القانون الدولي لتسيير الشؤون الخارجية بالوسائل السلمية وخاصة بطريق التفاوض .

ثالثاً: يقرر القانون الدولي ـ كما جاء في اتفاقية فيينا ـ إعفاء مقر البعثة من جميع الضرائب والرسوم، إلا ما كان مقابل خدمات خاصة، كما تُعفى البعثة من الضرائب على الرسوم التي تأخذها في مقابل منح السمات أو رسوم تجديد الجوازات ونحو ذلك .

رابعاً: اتجه الرأي لدى غالبية فقهاء القانون الدولي، واستقر العرف العام على إعفاء المبعوث الدبلوماسي من جميع أنواع الضرائب ـ إلا ما كان يملكه بصفة شخصية لصالحه ـ، واعتبر ذلك الإعفاء امتيازاً أساسه المجاملة وليس حصانة خاصة .

خامساً: الإعفاء من الرسوم الجمركية على المواد المعدة لاستعمال البعثة الرسمي، والمعدة للاستعمال الخاص للمبعوث الدبلوماسي وأفراد أسرته وذلك ضمن ما تسنه الدولة من قوانين ونظم .

سادساً: أكد الفقه الإسلامي حرمة أموال المبعوث الدبلوماسي تبعاً للأمان الذي أُعطيه، كما قرر الفقه الإسلامي إعفاء الرسل والسفراء من العشور والضرائب على ما معهم من أموال، إلا ما كان منها للتجارة فيؤخذ منه العشر مرة واحدة في العام إذا بلغ ماله مائتي درهم .

سابعاً: أكد الفقه الإسلامي على حرية المبعوث الدبلوماسي في إدخال ما يحتاج إليه من متاع لاستخدامه الشخصي أو لاستعمال البعثة وإعفائه من الرسوم الجمركية، بشرط أن لا يتنافى مع عقيدة المسلمين وأخلاقهم مما هو مباح في غير بلاد المسلمين .